إِتْحَافُ العَبِيدِ

بشـــرح تراجـــم أبـــواب

كِـتَـــابِ الـتَّـــوْحِيْـــدِ

للإمام محمد بن عبدالوهاب

- رحمه الله -

(١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ)

شرح وتعليق

الفقير إلى عفو ربه القدير

إبراهيم بن فرح محمد خيري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ

ⓒ إبراهيم فرح محمد النصري، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النصري ، إبراهيم فرح محمد

إتحاف العبيد بشرح تراجم أبواب كتاب التوحيد ./ إبراهيم فرح محمد النصري . - الرياض ، ١٤٤٠هـ

٣٦٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٢ - ٠٣٩٢ - ٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - التوحيد ٢ - العقيدة الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٠/٧١٠٢

رقم الإيداع : ١٤٤٠/٧١٠٢

ردمك : ٢ - ٠٣٩٢ - ٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ

يطلب من

مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان

ص . ب : ١٤٠٥ - الرياض : ١١٤٣١

هاتف : ٤٠٢٢٥٦٤ - فاكس : ٤٠٢٣٠٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله الذي خلق الخلق لأجل عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا سعادة لأحد في الدنيا والآخرة إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل وأنزل الكتب لتحقيق العبودية له سبحانه والتحذير من الإشراك به وعبادة الله هي الغاية التي لأجلها خلق الخلق وبها سعد من سعد منهم في الدنيا والآخرة، وهي أول أَمْر أَمَرَ الله عزَّ وجلَّ به الناس أجمعين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وأعظم نهي نهىٰ الله عنه هو الشرك به سبحانه وتعالى، وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى من أولهم إلى آخرهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤ - ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص ١٧].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص ٤١].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص ٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فذكره بالعبودية في مقام الإسراء وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)**[1].

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وامتناع الأنبياء عنها وقول المسيح عليه السلام: « **اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ** »[2] فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام العظيم بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له.

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٦٩].

---

(1) البخاري (٣٤٤٥).

(2) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٢).

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل وقد سأله عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

قال القاضي عياض - رحمه الله -:

ومِمَّا زادني عُجْباً وتيهاً ... وَكِدْتُ بأخمصي أطأُ الثُّريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صَيَّرت أحمدَ لي نبيَّا

وأن الشرك أعظم جريمة وأفظع ظُلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

---

(1) البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وهو الذنب الذي لا يُغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

*** وهو الذنب الأعظم:**

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» متفق عليه[1].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

---

(1) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وقــال تعــالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

*** وهو الذي يحبط العمل:**

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وفي الحديث القدسي: « **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في نونيته:

والشِّرْكَ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ... ذَا القِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ

وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ للرَّحْمَنِ ... إِيًّا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

وَاللَّهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللَّهِ فِي ... خَلْقٍ ولا رِزْقٍ وَلا إِحْسَانِ

فَاللَّهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلَّاقُ ... والرَّزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

لَكِنَّهُمْ سَاوَوْهُمُ بِاللَّهِ فِي ... حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

(1) مسلم (٢٩٨٥).

أما بعـد:

فإنَّ كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد لشيخ الإسلام محمد ابن عبدالوهاب - رحمه الله - عظيم في بابه، اعتنى به العلماء[1]، وطلبة العلم، واعتنوا به حفظاً ودراسة وتدريساً والتعليق عليه، منذ عصر مؤلفه إلى يومنا هذا، ومما يزيد من قيمة كتاب التوحيد أن مؤلفه رحمه الله أورد في كتابه العديد من الموضوعات المهمة التي يحتاجها كل مسلم ومسلمة في موضوع التوحيد، ومن هذه الموضوعات الحديث عن أهمية التوحيد وفضله والتحذير من الشرك وأسبابه، ومن هذه الأسباب: لبس الحلقة لرفع البلاء أو دفعه، والتبرك غير المشروع، والرقى والتمائم، والسحر والكهانة، والتنجيم، والاستغاثة بغير الله، والرياء... وغير ذلك من الأبواب.

وقد رأيتُ إبراز جانب عظيم من هذا الكتاب، وهو: شرح تراجم الأبواب؛ لأهميتها، وفقه الشيخ رحمه الله في هذه التراجم، ومن ضبط هذه التراجم وفهمها، فإنه بذلك يكون قد فهم هذا الكتاب القيِّم ومقاصده، وقد استخرتُ الله - عزَّ وجلَّ - في شرح هذه التراجم، وقد استفدتُ في شرح هذه التراجم وإبرازها من شروحات كتاب التوحيد المطبوعة.

(1) من أراد معرفة المزيد عن اهتمام العلماء بكتاب التوحيد فليراجع كتاب «عناية العلماء بكتاب التوحيد» للشيخ عبدالإله الشايع حفظه الله.

والغرض من شرح هذه التراجم هو إبراز هذه التراجم؛ لأهميتها يقول فضيلة الشيخ العلامة عبدالمحسن بن حمد العباد - حفظه الله - عن منهج الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في كتاب التوحيد، يقول: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد هو أهمُّ وأوسع كتب الشيخ رحمه الله في العقيدة، وقد اشتمل على ستة وستين باباً، أوّلها: باب فضل التوحيد وما يُكفِّرُ من الذنوب، وآخرها: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧].

وقبل الباب الأول ترجم بكتاب التوحيد، وأورد فيه خمس آيات وحديثاً وأثراً، وهذه الآيات هي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١]. وعقَّب الآيات من سورة الأنعام بأثر ابن مسعود رضي الله عنه بشأنها، ثم أورد حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه المتفق على صحته في بيان حق الله على العباد وحق العباد على الله.

ومن منهجه في تأليفه:

١ - أنَّ الكتاب من أوَّله إلى آخره يسوق فيه الشيخ الإمام آيات وأحاديث وآثارًا عن سلف هذه الأُمَّة، من الصحابة ومن بعدهم مِمَّن سار على نهجهم وطريقتهم، وصنيعه هذا شبيه بصنيع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه (الجامع الصحيح)، وعلى الأخصِّ كتاب التوحيد الذي هو آخر الكتب في صحيح البخاري، فإنَّ طريقةَ البخاري في ذلك أنَّه يورد آيات وأحاديث وآثاراً.

وقد بلغت أبواب كتاب التوحيد من صحيح البخاري ثمانية وخمسين باباً، أوَّلها: باب ما جاء في دعاء النَّبيِّ ﷺ أمَّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وقد أورد فيه حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه في بيان حقِّ الله على العباد وحقِّ العباد على الله، وعدة أبواب كتاب التوحيد عند الإمام البخاري وأبواب التوحيد عند الإمام محمد بن عبدالوهاب متقاربة، وهي في الصحيح ثمانية وخمسون، وعند الإمام محمد بن عبدالوهاب ستة وستون.

٢ - أنَّه عند إيراده الآيات والأحاديث والآثار يقدِّم الآيات ثم الأحاديث ثم الآثار، إلَّا إذا كان الأثر متعلِّقاً بآية أو بحديث، فإنَّه يقدِّمه من أجل ذلك التعلق.

٣- هذا الكتاب مشتمل على الآيات والأحاديث والآثار، وبذلك علا قدرُ الكتاب وارتفعت منزلته، وليس للشيخ رحمه الله فيه كلام إلَّا ما يورده

في آخر كلِّ باب من مسائل مستنبطة من الآيات والأحاديث والآثار، وهي تدلُّ على قوة فهم الشيخ رحمه الله ودقَّة استنباطه، وفيها شحذ أذهان طلاَّب العلم في معرفة المواضع التي استنبطت منها هذه المسائل.

٤ - أنَّ أبواب هذا الكتاب متضمِّنةٌ تقرير التوحيد، الذي هو إفراد الله بالعبادة، والتحذير مِـمَّا يُنافي أصل التوحيد، وهو الشرك بالله، أو يُنافي كمالَه، وهو الشرك الأصغر والبدع، ومن أبواب كتاب التوحيد في تقرير التوحيد باب فضل التوحيد وما يُكفِّر من الذنوب، وباب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، وباب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وباب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

ومن الأبواب فيما يُنافي أصل التوحيد وهو الشرك، باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، وباب ما جاء في الذبح لغير الله، وباب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ الآية [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]. وباب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

ومن الأبواب فيما يُنافي كمال التوحيد وهو البدع والشرك الأصغر، باب ما جاء أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، وباب ما جاء من التغليظ فيمَن عبدَ اللهَ عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عَبَدَه؟! وباب ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصالحين يصيِّرها أوثاناً تُعبد من

دون الله، وباب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جَناب التوحيد وسدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك، وباب قول: ما شاء الله وشئت[1].

هذا ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعل هذا العمل صالحًا ولوجهه خالصًا، وأن يوفقنا لتحقيق التوحيد وأن يجنبنا الشرك كبيره وصغيره، ونعوذ بالله أن نشرك به ونحن نعلم ونستغفر الله لما لا نعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين.

وكتب
الفقير إلى عفو ربه القدير
إبراهيم بن فرح محمد خيري
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الرياض

(1) كتب ورسائل عبدالمحسن بن حمد العباد (٥/ ٤٤-٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسلَّم

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

كتاب مصدر كتب يكتب كتابًا وكتابة وكُتبًا، ومدار المادة على الجمع، ومنه تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا. والكتيبة لجماعة الخيل، والكتابة بالقلم لاجتماع الحروف والكلمات.

والمراد به هنا المكتوب، أي هذا مكتوب جامع لخصائص التوحيد وحقوقه ومكملاته وما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، أو البدع القادحة في التوحيد أو المعاصي المنقصة للتوحيد، وبيان الوسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك والمقربة منه بالبراهين القاطعة من الكتاب والسُّنة وأقوال السلف.

والتوحيد مصدر وحده يوحده توحيداً جعله واحداً أي فرداً، ووحده قال: إنه واحد أحد أو قال: لا إله إلا الله، والواحد والأحد وصف اسم الباري تعالى؛ لاختصاصه بالأحدية.

وأقسام التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية: وهو العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه والمدبِّر لأمور خلقه جميعهم.

الثاني: توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

الثالث: توحيد الإلهية: وهذا هو المقصود الأعظم والذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب بل ما خلق الله سبحانه الخلق إلا لأجل هذا التوحيد الذي هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله خالق السماوات والأرض، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. وهذا في القرآن كثير جدًّا، مما يُحْتَجُّ عليهم في إثبات توحيد الإلهية بما اعترفوا به من توحيد الربوبية، فإنهم لم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم، تارة يعتقدون أنها تماثيل قوم صالحين من الأنبياء ونحوهم، ويتخذونهم شفعاء يتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «أن عَمْرو بن لُحَيِّ بن قَمْعَةَ بن خِنْدَف هو أولُ من غير دين إبراهيم عليه الصلاة

والسلام ونصب الأنصاب[1] حول البيت وسَيَّبَ السوائبِ[2]، وأخبر النبي ﷺ أنه رآه يَجُرُّ قُصْبَهُ[3] في النار»[4].

وكانت خُزاعة ولاة البيت الحرام قَبْلَ قريش، وكان عمرو هذا فيما ذكره أهل السِّير قد قَدِمَ أرض البَلْقاء من الشام فوجدهم يعبدون الأصنام ويقولون: إنهم يطلبون بهم الرزق والنصر! فجلب الأصنام إلى مكة، فكان ذلك أول الشرك الذي غيَّر به دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤].

وقد ثبت في صحيح البخاري[5] وكتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عَكَفُوا على قبورهم ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بِعَيْنِها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما قَبيلَةً قبيلة.

---

(1) الأنصاب: الآلهة التي كانت تُعبد من الأحجار، وهي أيضاً بمعنى الأوثان والأنصاب. «لسان العرب» (مادة: نصب).

(2) السوائب جمع سائبة. قال ابن منظور: كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفرٍ أو برئ قال: ناقتي سائبة أي تُسَيَّبُ فلا يُنتفعُ بظهرها، ولا تُمنع من كلأ ولا تُركب «لسان العرب» (مادة: سيب).

(3) قصبه: بضم القاف وسكون الصاد: الأمعاء.

(4) الحديث أخرجه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (٨٥٦).

(5) البخاري (٤٩٢٠).

فتبين أن شرك العرب كان من جنس شرك قوم نوح، وأن الأصنام أصلها تماثيل قوم صالحين.

وشرك النصارى قريب من هذا الجنس، فإنهم يُصَوِّرونَ في كنائِسِهم صور من يحسنون به الظن، ويتخذونه شفيعاً ووسيلة إلى الله تعالى.

وقد ثبت في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ (**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**)[1].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لَعَنَ اللَّهُ اليهُودَ والنَّصَارى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِم مَسَاجِدَ**» يُحذِّر ما فعلوا. قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: لَوْلاَ ذلِكَ أُبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً[2].

وهؤلاء المشركون كانوا مُقرين بالخالق سبحانه، وأنه ليس للعالم خالقان، ولكن اتَّخذوا هذه الوسائط شفعاء، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

---

(1) مسلم (٩٦٩).

(2) البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

* * *

[١] بَـــابُ
فَضْلِ التَّوْحِيدِ، وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

الباب لغة: المدخل إلى الشيء، **واصطلاحاً**: اسم لجملة من العلم، تحته فصول ومسائل غالباً، وإنما بُوِّبت الكتبُ ليكون أنشط للطالب إذا ختم باباً وشرع في آخر، وأبعثُ لهمّته، كالمراحل التي يطلبها المسافر ليرتاح عندها، ولذا كان القرآن سوراً، ولأنه أسهل في وجدان المسائل وأدعَى لحسن الترتيب، وسُميت الأبواب تراجم؛ لأنها تترجم عما بعدها أي تبيِّنه بوجه إجمالي، ومنه الترجمان.

باب خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا باب بيان فضل التوحيد وبيان ما يكفر من الذنوب، وما: يجوز أن تكون موصولة، أي: وبيان ما يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح؛ لأن الأول يوهم أن ثم ذنوباً لا يكفرها التوحيد وليس بمراد.

ولما ذكر معنى التوحيد وكانت الأنفس تتشوق إلى معرفة المعاني، ونيل الفضائل وتحصيلها ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب، ترغيباً فيه، وتحذيراً من ضده وهو الشرك، والمراد بالتوحيد توحيد العبادة، وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر، وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]. والمغفرة وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره.

ومن فضائله:

* أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما.
* أنه يمنع الخلود في النار، إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.
* أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.
* أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ مَن قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.
* جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.
* يُسهِّل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويُسلِّيه عند المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات، لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشى من سخطه وعقابه.
* أن التوحيد إذا كمل في القلب حبَّب الله لصاحبه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين.

* يخفف عن العبد المكاره، ويهوّن عليه الآلام فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان وتلقيه المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.
* أنه يُحرِّر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي ويكون متعبداً لله، لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إياه، ولا يُنيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.
* أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام، فإنه يُصيِّر القليل من عمله كثيراً، وتتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله، كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها: لا إله إلا الله، التي وزنت تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها. وكم ممن يقولها لا يبلغ هذا المبلغ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.
* أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

* ومنها أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسُّنة كثيرة معروفة، والله أعلم[1].

* * *

(1) القول السديد للعلامة ابن سعدي - رحمه الله - (ص١٦ - ١٩).

[٢] بَـــابُ

مَنْ حَـقَّـقَ التَّـوْحِيدَ دَخَلَ الـجَنَّـةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

لما ذكر التوحيد وفضله ناسب أن يذكر تحقيقه، فإنه لا يحصل كمال فضله إلا بكمال تحقيقه وتحقيق التوحيد قدر زائد على ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين، واجب ومندوب، فالواجب تخليصه وتصفيته عن شوائب الشرك والبدع والمعاصي. فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه فلا يكون العبد محققاً للتوحيد حتى يسلم من الشرك الأكبر والأصغر، ويسلم من البدع والمعاصي، والمندوب تحقيق المقربين، تركوا ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وحقيقته هو انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره، فإذا حصل تحقيقه بما ذُكر، فقد حصل الأمن التام والاهتداء التام، فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه،

وأقواله وأفعاله، وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصوداً بها وجه الله، متبعاً فيها رسول الله ﷺ، والناس في هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان، وصدقته الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة الجليلة.

وما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم - رحمه الله - في الكافية الشافية:

هَـذَا وَثَـانِي نَـوعَي التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ العِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلرَّحْمَـنِ

أَلاَّ تَكُــونَ لِغَيْــرِهِ عَبْــداً وَلاَ ... تَعْبُـدْ بِغَـيْرِ شَرِيعَـةِ الإِيمَـانِ

فَتَقُـومَ بِالإِسْلَامِ وَالإِيمَـانِ وَال ... إِحْسَانِ فِـي سِـرٍّ وَفِـي إِعْلَانِ

وَالصِدْقُ وَالإِخْلَاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التَّـ ... ـوْحِيدِ كَالرُّكْنَيْـنِ لِلبُنْيَـانِ

وَحَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ تَوْحِيدُ المُرَادِ ... فَــلاَ يُزَاحِمُــهُ مُـرَادٌ ثَــانِ

لَكِنْ مُرَادُ العَبْـدِ يَبْقَـى وَاحِـداً ... مَـا فِيـهِ تَفْرِيـقٌ لَـدَى الإِنْـسَانِ

إِنْ كَـانَ رَبُّـكَ وَاحِـداً سُبْحَانَـهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ

أَوْ كَـانَ رَبُّـكَ وَاحِـداً أَنْشَاكَ لَـمْ ... يُـشْرِكْهُ إِذْ أَنْـشَاكَ رَبٌّ ثَـانِ

فَكَـذَاكَ أَيْـضاً وَحْـدَهُ فَاعْبُـدْهُ لاَ ... تَعْبُـدْ سِـوَاهُ يَـا أَخَـا العِرْفَـانِ

وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْوَ بَذْلُ ... الجُهْـدِ لاَ كَسَـلاً وَلاَ مُتَـوَانِ

وَالـسُّنَّـةُ المُثْلَى لِـسَالِكِهَا فَتَـوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِ

فَلِوَاحِدٍ كُـنْ وَاحِـداً فِـي وَاحِـدٍ أَعْنِي سَبِـيلَ الْـحَقِّ وَالإِيمَـانِ
هَـذِي ثَـلاَثٌ مُـسْعِدَاتٌ لِلَّـذِي قَـدْ نَالَـهَـا وَالفَـضْلُ لِلْمَنَّـانِ

ومعنى قوله: « فَلِوَاحِدٍ » أراد توحيد المراد بالإخلاص، « كُنْ وَاحِداً » والمراد توحيد الإرادة بالصدق، « فِي وَاحِدٍ » وهو توحيد الطريق باتباع الحق.

وقوله: « هَذِي ثَلاَثٌ مُسْعِدَاتٌ » يعني أن هذه الثلاث هي أسباب السعادة لمن نالها، «وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ» جلَّ وعلا الذي يمُنُّ على من يشاء من عباده.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: دين الإسلام مبني على أصلين وهما: **تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**: أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله، ولا ترجوه كما ترجو الله، ولا تخشاه كما تخشى الله فمن سوَّي بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله وهو من الذين هم بربهم يعدلون.

والأصل الثاني: أن يعبده بما شرع على ألسنةِ رُسلِهِ، لا تعبده إلا بواجب أو مستحب، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك.

[٣] بَــابُ
الْخَـوْفِ مِـنَ الـشِّـرْكِ

أي: باب وجوب الخوف من الشرك وتحتمه والتحذير منه وبيان ما يتعلق به من الخسران الأبدي والعذاب السرمدي. وخاف الشيء فزع منه واتقى ضد أمن، لما ذكر التوحيد وفضله وتحقيقه ناسب أن يذكر الخوف من ضده وهو الشرك ليحذره المؤمن ويخافه على نفسه.

قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه» وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية». قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر، فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم، ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح وقبح حال الكفر والمعاصي.

تعريف الشرك لغة:

الشرك في اللغة: اسم للشيء الذي يكون بين أكثر من واحدٍ، بحيث لا ينفرد به أحدهم. تقول: قد اشترك الرجلان، وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر. وتقول: اشتركنا وتشاركنا في كذا، وشَرَكَهُ في الأمر يُشْرِكُهُ، إذا دخل معه فيه. وأشرك بالله، جعل له شريكاً فهو مشرك.

وفي الشرع: صرفُ حقٍّ من حقوق الله لغيره.

أو مساواة غير الله بالله فيما هو حقٌّ لله.

فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، أو اعتقد أنَّ هناك ربًّا ومدبِّراً غير الله، أو صرف شيئاً من خصائص الربوبيَّة لغير الله عزَّ وجلَّ فقد جعل ذاك الذي صَرَفَ له شريكاً لله سبحانه وتعالى.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك وهو شرك عباد الأصنام وعباد الملائكة وعباد الجن وعباد الأولياء والصالحين الأحياء منهم والأموات الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. وهم يشفعون لنا عنده بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب كرامة كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته، والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله تعالى.

وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم وما أهلك الله من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله[1].

أنواع الشرك:

الشرك نوعان: أكبر وأصغر.

يُعرَّف الشرك الأكبر بأنَّه: إثبات شريك لله - عزَّ وجلَّ - في خصائصه فيجعل الإنسان ندًّا لله في ربوبيته، أو في أُلوهيته، أو في أسمائه وصفاته.

الشرك الأصغر:

يُعرَّف الشرك الأصغر بأنَّه مُساواة غير الله بالله في هيئة الفعل وأقوال اللسان، أو: كلّ ما أطلق عليه الشرع وصف الشرك، لكنَّه لا يُخرج من الملَّة.

وعرَّف الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - الشرك الأصغر بأنَّه: «جميع الأقوال والأفعال التي يُتوسَّل بها إلى الشرك، كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة، كالحلف بغير الله، ويسير الرياء، ونحو ذلك»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به[3].

---

(1) «الدين الخالص» للعلامة صديق حسن خان - رحمه الله - (١/ ٥١).

(2) «القول السديد» للعلامة ابن سعدي - رحمه الله - ص(٢٥).

(3) «الاستقامة» (١/ ٣٤٤).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: أما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله [(١)].

الشرك هو أن تجعل لله ندًّا أو شريكاً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، وهو المبطل للأعمال والمانع من قبولها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وحد الشرك: «أن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص وصرفه لغيره شرك وكفر».

وينقسم الشرك إلى قسمين: أكبر، وأصغر.

الشرك الأكبر:

يخرج صاحبه من ملة الإسلام ويوجب له الخلود في جهنم ويحرم عليه الجنة، هذا إذا مات على الشرك.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٥).

بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأنواع الشرك الأكبر أربعة:

(١) شرك الدعاء: وهو اللجوء إلى غير الله بدعائه وقصده، قال تعالى عن المشركين: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. فهم يوحدون الله في حال الضيق والشدة، فإذا نجاهم أشركوا ودعوا غيره.

(٢) شرك النية والإرادة والقصد: وهو أن يعمل العمل مما يراد به وجه الله عزَّ وجلَّ، يعمله لغير الله ويقصد به مراداً آخر، فهذا شرك أكبر. قال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥- ١٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[1].

(٣) **شرك الطاعة**: وهو طاعة الأحبار والرهبان وغيرهم في تحريم ما أحلَّ الله أو إباحة ما حرَّم الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

قال ابن كثير: روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. قال: فقلتُ: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بَلَى! إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا عَدِيُّ، مَا تَقُولُ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ**

(1) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٩).

اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللَّهِ؟ مَا يُفِرَّكَ: أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ إِلهاً غير اللَّه؟» ثم دعاه إلى الإسلام؛ فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه فاستبشر ثم قال: (إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ)[1].

(٤) **شرك المحبة**: وهو محبة غير الله عزَّ وجلَّ، وتقديم ذلك على محبة الله وأمره ونهيه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

النوع الثاني: الشرك الأصغر:

وهذا القسم لا يخرج صاحبه من الملة ولكنه أعظم من أكبر الكبائر عياذاً بالله من ذلك.

وهو أيضاً نوعان: ظاهر، وخفي.

الظاهــر: ما كان من ألفاظ قولية، وأفعال عملية.

فمن الألفاظ: الحلف بغير الله، وقول الإنسان: لولا الله وأنت، أو: هذا من الله ومنك، ما شاء الله وشئت، فإنَّ هذا يقتضي المساواة بين الله وبين العبد، وهذا محال، ولكن الصحيح ألا يحلف إلا بالله عزَّ وجلَّ،

(1) الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الإمام الألباني - رحمه الله - كما في «صحيح سنن الترمذي».

وأن يقول: لولا الله ثم أنت، أو: هذا من الله ثم منك، وما شاء الله ثم شئت.

ومن الأفعال: لبس الحلقة والخيط، وتعليق التمائم خشية العين أو الجن، فمن فعل ذلك معتقداً أنها سبب يستدفع بها البلاء وأنَّ الدافع للبلاء هو الله وحده، فقد أشرك شركاً أصغر، وإذا فعل ذلك معتقداً أنَّ هذه الأشياء تدفع البلاء بعد نزوله أو تمنعه قبل حلوله، فقد أشرك شركاً أكبر، حيث اعتقد شريكاً مع الله في الخلق والتدبير.

أما الشرك الخفي من الشرك الأصغر: فهو شرك الإرادات والمقاصد، وهو من أخطر الأشياء الذي قلَّ مَن ينجو منه، ويتعلق بالرياء والسمعة وإظهار العبادة بقصد ثناء الناس، كما يتعلق بإرادة الدنيا ومطامعها، وهذا ينافي كمال التوحيد.

الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر:

١- الشرك الأكبر يخرج صاحبه من الإسلام بخلاف الشرك الأصغر.

٢- الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، أما الشرك الأصغر فإنه يحبط العمل الذي خالطه فقط.

٣- الشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والشرك الأصغر ليس بذلك.

٤- الشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار، أما الشرك الأصغر فلا يخلد صاحبه في النار وإن دخلها.

٥- الشرك الأكبر يوجب المعاداة وقطع الموالاة، فلا يجوز موالاته مهما كانت قرابته، أما الشرك الأصغر فلا يقطع الموالاة على الإطلاق، وإنما يوالى بقدر ما لديه من التوحيد، ويعادى بحسب ما فيه من الشرك الأصغر.

[٤] بَــابُ
الـدُّعَـاءِ إِلَى شَـهَـادَةِ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ

أشار بها المصنف إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن معناها توحيد العبادة، ونفي عبادة ما سوى الله سبحانه وتعالى، والمراد بذلك: العلم والعمل بما دلت عليه من إفراد الله بالعبادة، بخلاف من قال أول واجب النظر في الوجود، أو القصد إلى النظر، فلا واجب على المكلفين أعظم من التوحيد علماً وعملاً، ومن أدلته حديث معاذ رضي الله عنه، فإنَّ قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» مع قوله: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**» يعني أنهم أهل علوم وكتب وحجج، ومع ذلك أمره أن يدعوهم إلى إفراد الله بالعبادة؛ لكونهم محتاجين إلى أن تبين لهم ذلك.

ولما ذكر المصنف التوحيد وفضله وتحقيقه وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، فإنَّ الرجل إذا علم وجب عليه العمل، فإذا علم وعمل وجبت عليه الدعوة إلى الله، حتى يكون من ورثة الأنبياء وعلى طريقهم وطريق أتباعهم، قال الحسن لما تلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: (هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله

فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته، وقال: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا خليفة الله)، والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى توحيده والإيمان به وبما جاءت به رسله وذلك يتضمن الدعوة إلى أركان الإسلام وأصول الإيمان والإحسان: الأمر بما أمر به، والنهي عما نهى عنه، ولا تتم إلا بذلك، وأول ما يبدأ به الدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى الشهادة، كما كان شأن المرسلين وأتباعهم ، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم بالدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره.

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله **أن مراتب الدعوة ثلاثة أقسام**، وذلك بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالباً للحق محبًّا له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة وجدال، وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى موعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن، ولابد في الدعوة إلى الله من شرطين: **أن تكون خالصة لوجه الله، وأن تكون على وفق سُنة رسول الله ﷺ**، وأن يكون الداعي عارفاً بما يدعو إليه، فإن أخل بالأول كان **مشركاً**، وإن أخل بالثاني كان **مبتدعاً**.

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة فيما أمر به على ألسنة رسله، كما قال تعالى عن نوح أول رسول

أرسله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]. وفيه دليل على أن التوحيد هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه، وهو أول واجب ولهذا كانت أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام، ولابد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها.

الشرط الأول : العلم المنافي للجهل.

الشرط الثاني : اليقين المنافي للشك.

الشرط الثالث : الإخلاص المنافي للشرك والرياء .

الشرط الرابع : الصدق المنافي للكذب.

الشرط الخامس: المحبة المنافية للبغض.

الشرط السادس: القبول المنافي للرد.

الشرط السابع : الانقياد المنافي للترك.

أما الشرط الأول: وهو العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل وذلك بأن يعلم من قالها أنَّها تنفي جميع أنواع العبادة عن كلِّ من سوى الله وتُثبت ذلك لله وحده كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. أي نعبدُك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بسواك.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. قال المفسِّرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم.

وثبت في صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1] فاشترط عليه الصلاة والسلام العلم.

الشرط الثاني: فهو اليقين المنافي للشك والريب، أي أن يكون قائلها موقناً جازماً لا شك فيه ولا ريب، واليقين هو تمام العلم وكماله، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]. ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي أيقنوا ولم يشُكُّوا.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2].

(1) مسلم (٢٦).
(2) مسلم (٢٧).

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»[1] فاشترط اليقين.

الشرط الثالث: هو الإخلاص المنافي للشرك والرياء، وذلك إنَّما يكون بتصفية العمل وتنقيته من جميع الشوائب الظاهرة والخفيّة وذلك بإخلاص النية في جميع العبادات لله وحده، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: « أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ - أَوْ نَفْسِهِ -»[2] فاشترط الإخلاص.

الشرط الرابع: هو الصدق المنافي للكذب، وذلك بأن يقول العبدُ هذه الكلمة صادقاً من قلبه، والصدق هو أن يواطئ القلبُ اللسانَ؛ ولذا قال تعالى في ذمِّ المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأنَّ ما قالوه بألسنتهم لم يكن موجوداً في

(1) مسلم (٣١).

(2) البخاري (٩٩).

قلوبهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**»[1]، فاشترط الصدق.

الشرط الخامس: المحبة المنافية للبغض والكره وذلك بأن يحب قائلها الله ورسوله ودين الإسلام والمسلمين القائمين بأوامر الله الواقفين عند حدوده، وأن يُبغض من خالف لا إله إلا الله وأتى بما يُناقضها من شرك وكفر، ومما يدل على اشتراط المحبة في الإيمان قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: «**أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله**»[2].

الشرط السادس: القبول المنافي للردِّ، فلابد من قبول هذه الكلمة قبولاً حقًّا بالقلب واللسان، وقد قصَّ الله علينا في القرآن الكريم أنباء من سبق ممّن أنجاهم لقبولهم لا إله إلا الله وانتقامه وإهلاكه لمن ردَّها

(1) البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(2) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٨٦)، وحسّنه العلامة الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٢٨).

ولم يقبلها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]. وقال سبحانه في شأن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦].

الشرط السابع: الانقياد المنافي للترك، إذ لابد لقائل لا إله إلا الله أن ينقاد لشرع الله ويُذعِن لحكمه ويُسلِمْ وجهه إلى الله إذ بذلك يكون متمسكاً بـ لا إله إلا الله، ولذا يقول تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، أي فقد استمسك بـ لا إله إلا الله، فاشترط سبحانه الانقياد لشرع الله، وذلك بإسلام الوجه له سبحانه.

فهذه هي شروط لا إله إلا الله، وليس المراد منها عد ألفاظها وحفظها فقط، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له اعددها لم يُحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، فالمطلوب إذاً العلم والعمل معاً ليكون المرء بذلك من أهل لا إله إلا الله صدقاً، ومن أهل كلمة التوحيد حقًّا. والموفق لذلك والمعين هو الله وحده، نسأله سبحانه أن يوفقنا وإياكم لتحقيق ذلك، والحمد لله وحده.

[٥] بَــابُ
تَـفْسِيرِ التَّـوْحِيـدِ وَشَـهَـادَةِ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ

أي تفسير هاتين الكلمتين والعطف لتغاير اللفظين وإلا فالمعنى واحد. ولما ذكر المصنف في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذي هو الشرك، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذي خُلِقتْ له الخليقة، والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له، وإن لقيه بملء الأرض خطايا، بين رحمه الله في هذا الباب أنه ليس اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بالملك، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية وهذا ليس هو المراد بالتوحيد ولا هو أيضاً معنى لا إله إلا الله وإن كان لابد منه في التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله والإقبال بالقلب والعبادة على الله وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وهو معنى لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

إنَّ كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي هي خير الذِّكر وأفضله وأكمله لا تكون مقبولة عند الله بمجرد التلفظ بها باللسان فقط، دون قيام من العبد بحقيقة مدلولها وتطبيق لأساس مقصودها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فبذلك يكون العبد مسلماً حقًّا، وبذلك يكون من أهل لا إله إلا الله.

وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة أنَّ ما سوى الله ليس بإله وأنَّ إلهية ما سواه أبطلُ الباطل، وإثباتها أظلمُ الظلم، ومنتهى الضلال. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥ – ٦].

فيا لها من مسألة ما أجلَّها، ويا له من أمر ما أبينه وأوضحه، ولكن التوفيق بيد الله وحده وهو وحده المستعان.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ولا ريب أنَّ صرف العبادة لغير الله ظلم؛ لأنَّه وضع لها في غير موضعها بل إنَّه أظلم الظلم وأخطره.

وأنَّ لـ لا إله إلا الله هذه الكلمة العظيمة مدلولاً لابدّ من فهمه ومعنى لابد من ضبطه إذ غيرُ نافع بإجماع أهل العلم النطقُ بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها ولا عمل بما تقتضيه كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

ومعنى الآية كما قال أهل التفسير أي: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله، وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم، إذ إنَّ الشهادة تقتضي العلم بالمشهود له، فلو كانت عن جهل لم تكن شهادة، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك، وبهذا يتبين أنَّه لابدّ في هذه الكلمة من العلم بها مع العمل والصدق، فبالعلم ينجو العبد من طريقة النصارى الذين يعملون بلا علم وبالعمل ينجو من طريقة اليهود الذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، ويكون بذلك من أهل صراط الله المستقيم، من الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والحاصل أنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك وعمل به، أما من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأما من قالها وعمل بضدِّها وخلافها من الشرك فهو الكافر وكذلك من قالها وارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنَّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرة وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كالدعاء والذبح والنذر، والاستغاثة، والتوكل، والإنابة،

والرجاء والخوف والمحبة، ونحو ذلك، فمن صرف شيئاً مما لا يصلحُ إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك بالله العظيم ولو نطق بـ لا إله إلا الله إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص الذي هو معنى ومدلول هذه الكلمة العظيمة.

فإنَّ لا إله إلا الله معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة هو المعبود، ولا إله إلا الله أي لا معبود حق إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فتبين بذلك أنَّ معنى الإله هو المعبود، وأنَّ لا إله إلا الله معناها إخلاص العبادة لله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «قولوا: لا إله إلا الله» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وقال قومُ هودٍ لنبيهم لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]. قالوا ذلك وهو إنَّما دعاهم إلى لا إله إلا الله: لأنَّهم فهموا أنَّ المراد بها نفي الألوهية عن كلِّ من سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له، فـ لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات فنفت الإلهية عن كلِّ ما سوى الله تعالى، فكلُّ ما سوى الله من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، وليس له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أنَّ

العبد لا يألَهُ غيره أي لا يقصده بشيء من التأله، وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبينُ معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله وتوضح المراد بها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٢-٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١١-١٤].

وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا وهي تُبيِّن أنَّ معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد وإفراد الله وحده بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل لربما جعل لغير الله حظًّا ونصيباً من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات فإنَّ هذا لا يكفي العبد لأن يكون من أهل لا إله إلا الله، ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله.

فليست لا إله إلا الله اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له أو لفظاً لا مضمون له، كما قد يظنه بعض الطاغين الذين يعتقدون أنَّ غاية التحقيق في ذلك هو النطق بهذه الكلمة من غير اعتقاد في القلب بشيء من المعاني أو التلفظ بها من غير إقامة لشيء من الأصول والمعاني، وهذا قطعاً ليس هو شأن هذه الكلمة العظيمة، بل هي اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله كما تقدَّم البراءةُ من عبادة كلِّ ما سوى الله، والإقبال على الله وحده خضوعاً وتذللاً، وطمعاً ورغباً، وإنابةً وتوكلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله ولا يتوكل إلا على الله، ولا يرجو غير الله، ولا يذبح إلا لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يُعبد من دون الله ويبرأ إلى الله من ذلك.

[٦] بَـــابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

ابتدأ المصنف - رحمه الله - بتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بذكر شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فإن الضد لا يُعرف إلا بضده كما قيل:

وبضدِّها تتبينُ الأشياءُ

فمن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس.

لبس الحلقة وهي كل شيء استدار من صفر وغيره، **والخيط ونحوهما** كالودعة والتميمة والمسمار والخرزة ونحو ذلك **لرفع البلاء**: إزالته بعد نزوله، **أو دفعه**: منعه قبل نزوله.

فمن فعل ذلك معتقداً أنها سبب يستدفع بها البلاء وأنَّ الدافع للبلاء هو الله وحده فقد أشرك شركاً أصغر وإذا فعل ذلك معتقداً أنَّ هذه الأشياء تدفع البلاء بعد نزوله أو تمنعه قبل حلوله فقد أشرك شركاً أكبر حيث اعتقد شريكاً مع الله في الخلق والتدبير، يقول العلامة ابن سعدي - رحمه الله - وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها: **أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:**

أحدها: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته، ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيَّرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصداً بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر.

وهو شرك في **الربوبية**، حيث اعتقد شريكاً مع الله في الخلق والتدبير وشرك في **العبودية** حيث تألَّه لذلك، وعلَّق به قلبه طمعاً ورجاء لنفعه وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده، ولكن اعتقدها سبباً يستدفع بها البلاء، فقد جعل ما ليس سبباً شرعيًّا ولا قدريًّا سبباً، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة.

وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة، وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لابد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه.

فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه ﷺ، التي يتوسل بها إلى رضاء الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقاً قلبه بها راجياً لنفعها، فيتعين على المؤمن تركها، ليتم إيمانه وتوحيده، فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضاً نقص في العقل، حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها. والله أعلم[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - **فالناس في الأسباب لهم ثلاث طرق: إبطالها بالكلية، وإثباتها** على وجه لا يتغير ولا يقبل سلب

(1) القول السديد للعلامة ابن سعدي - رحمه الله - (ص ٣٦ - ٣٩).

سببيتها، ولا معارضتها بمثلها أو أقوى منها كما يقول الطبائعية والمنجمون والدهرية ، **والثالث** : ما جاءت به الرسل ودل عليه الحس والعقل والفطرة : إثباتها أسباباً، وجواز بل وقوع سَلْب سببيتها عنها إذا شاء الله ، ودَفْعها بأمور أخرى نظيرها أو أقوى منها ، مع بقاء مقتضى السببية فيها ، كما تُصْرَفُ كثير من أسباب الشر بالتوكل والدعاء والصدقة والذكر والاستغفار والعتق والصلة ، وتصرف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضد ذلك ، فلله كم من خير انعقد سببه ثم صُرِفَ عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله وهو يشاهد السبب، حتى كأنه أخذ باليد ؟ وكم من شر إنعقد سببه ثم صُرِف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله ؟ ومن لا فقه له في هذه المسألة فلا انتفاع له بنفسه ولا بعلمه ، والله المستعان وعليه التكلان [1] انتهى .



(١) إعلام الموقعين للإمام بن القيم - رحمه الله - (١/ ٦٢٢) .

[٧] بَـــابُ
مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَـائِـمِ

أي من النهي عما لا يجوز من ذلك ، وذكر ما ورد عن السلف في ذلك ولم يجزم بكونهما من الشرك لأن فيهما تفصيل .

الرُّقية هي العوذة التي يُرقي بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات)[١] .

وتنقسم إلى قسمين :

الأول : الرُّقى الممنوعة ، وهي التي تكون بالاستعاذة بغير الله والإستغاثة بالجن وهي التي عناها النبي ﷺ في قوله : (**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**)[٢] .

الثاني : الرُّقى المشروعة وهي التي توفرت فيها الشروط التالية :

(١) أن لا تكون رقية شركية فعن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يارسول الله كيف ترى في ذلك فقال : (**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**)[٣] .

---

(1) النهاية في غريب الحديث لإبن الأثير (٢/ ٢٥٤) .

(2) رواه أبو داود (٣٨٨٣) ، ابن ماجه (٣٥٣٠) ، وأحمد (١/ ٣٨١) .

(3) مسلم (٢٢٠٠) .

(٢) ألاَّ تكون رقية سحرية فلا يحل للمسلم أن يذهب إلى السحرة ليطلب منهم الرقية للوعيد الشديد والنهي الأكيد عن إتيان الكهنة والعرافين والسحرة ، لقوله ﷺ (**من أتى كاهناً أو عرافاً وفي رواية أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**)[١] .

(٣) أن تكون بعبارات واضحة ومفهومة المعني فإن مالا يفهم معناه لا يؤمن أن يكون فيه شرك ، وما كان مظنة الشرك فلا يجوز عمله ، ولهذا يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله – في الفتح .

أجمع العلماء على جواز الرُّقى عند اجتماع **ثلاثة شروط** :

أ – أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته .

ب – أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره .

ج – أن يعتقد أن الرُّقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى[٢] .

والرُّقية الشرعية بكتاب الله – عزَّ وجلَّ – وسُنة رسوله ﷺ لا تنافي التوكل بل هي من صميم الإيمان والاعتماد على الله واللجؤ إليه في كشف الضر ودفع البلاء لفعل النبي ﷺ لها بنفسه وبغيره وكذلك خيار الصحابة رضي الله عنهم بالشروط السابقة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

---

(1) أبو داود (٣٩٠٤) ، الترمذي (١٣٥) ، ابن ماجه (٦٣٩) ، وصححه العلامة الألباني كما في صحيح سنن أبي داود .

(2) فتح الباري للحافظ ابن حجر – رحمه الله – (٢٠٦/١٠) .

((يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب)) فقال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) . فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم والرُّقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك .

وقد روى فيه : ((ولا يرقون)) وهو غلط ، فإنَّ رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة وكان النَّبِيُّ ﷺ يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وغيرهم)) [١] .

التمائم :

وهي خرزات كان العرب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام وكانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء [٢] .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري التمائم جمع تميمة وهي خرز أو قلادة تعلق في الرأس ، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات ، **والتِّولة** بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ١٨٢) .

(2) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/ ١٩٧) .

تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله[1] .

حكم تعليق التمائم :

يقول الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز – رحمه الله – تعليق التمائم من الشرك الأصغر وقد يكون شركاً أكبر على حسب ما يقوم بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وأنها تنفع وتضر من دون الله – عزَّ وجلَّ – وما أشبه هذا الاعتقاد ، أما إذا أعتقد أنها سبب السلامة من العين أو الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر ، لأن الله سبحانه لم يجعلها سبباً بل نهى وحذر وبين أنها شرك على لسان رسوله ﷺ ، وما ذاك إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات إليها ، والتعلق بها[2] .

إذا كان المعلق من القرآن الكريم والأدعية الصحيحة لا خلاف بين أهل العلم في تحريم اتخاذ التمائم أو تعليقها إذا كانت بألفاظ شركية أو بسبب اعتقادات فاسدة وإنما وقع الخلاف بين العلماء في جواز تعليق التمائم إذا كانت من القرآن الكريم أو من أسماء الله وصفاته .

ملخص الخلاف كما ذكره صاحب تيسير العزيز الحميد .

---

(1) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٤١) .

(2) التعليق على فتح المجيد (١١١) .

((اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته فقالت طائفة : يجوز ذلك وهو قوله عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وغيره وهو ظاهر ما روى عن عائشة رضي الله عنها وبه قال أبوجعفر الباقر وأحمد في رواية وحملوا الحديث على التمائم الشركية ، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته فكالرقية بذلك ، قلت وهو ظاهر اختيار ابن القيم وقالت طائفة لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم رضي الله عنهم وبه قال جماعه من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في رواية اختارها كثير من الأصحاب ، وجزم بها المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التي في القرآن وغيرها ، بخلاف الرُّقَى فقد فرق فيها، ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم من حديث ابن مسعود (روى أبو داود عن عيسى بن حمزة قال دخلت على عبد الله بن عكيم وبه حمرة فقلت ألا تعلق تميمة فقال نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ ((مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ)) [1] وروى وكيع عن ابن عباس قال : ((اتفل بالمعوذتين ولا تعلق)) ، وأما القياس

(1) الترمذي (٢٠٧٢) ، أحمد (٤/ ٣١٠) ، الحاكم (٤/ ٤١٦) ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٣٤٥٦) .

على الرُّقية بذلك فقد يقال بالفرق فكيف يقاس التعليق الذي لابد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على ما لا يوجد ذلك فيه فهذا إلى الرُّقَى المركبة من حق وباطل أقرب ، هذا اختلاف العلماء في تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته فما ظنك بما حدث بعدهم من الرُّقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها ؟ بل والتعلق عليهم ، والاستعاذة بهم ، والذبح لهم وسؤالهم كشف الضر وجلب الخير مما هو شرك محض وهو غالب على كثير من الناس إلا ما سلمه الله فتأمل ما ذكره النَّبِيُّ ﷺ وما كان عليه أصحابه والتابعون وما ذكره العلماء بعدهم في هذا الباب وغيرهم من أبواب الكتاب ثم انظر إلى ما حدث في الخلوف المتأخرة يتبين لك دين الرسول ﷺ وغربته الآن في كلِّ شيء فالله المستعان[(١)] .

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله – وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم ، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل بها المواضع القذرة[(٢)] .

(1) تيسير العزيز الحميد (١٣٩) .

(2) القول السديد لابن سعدي (ص ٤١ – ٤٢) .

[٨] بَــابٌ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

أي وما يشبههما كبقعة ومغارة وزاوية وقبر ومشهد وموطئ وأثر ونحو ذلك ومَنْ اسم شرط والجواب محذوف تقديره فقد أشرك ويحتمل أنَّ مَنْ موصولة فيكون معناها باب بيان حكم من تبرك بالأشجار والأحجار ونحوها وما يترتب عليه من الوعيد وحكمه أنه مشرك الشرك الأكبر لكونه تعلق على غير الله في حصول البركة من غيره فإنَّ العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد والأضرحة وغيرها ، فإنَّ هذا التبرك غلو فيها ، وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها وهذا هو الشرك الأكبر .

اعتقاد البركة في شيء لم يجعل الله - عزَّ وجلَّ - فيه بركة شرك أكبر واعتقاد أنه سبب للبركة شرك أصغر ، ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أنَّ فيه ذكر الشركيات المنافية للتوحيد ، أو كماله .

التبرك : هو طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر وكل ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه بسبب ذات مباركة أو زمان مبارك وتكون هذه البركة قد ثبتت لذلك السبب ثبوتًا شرعيًا وثبتت الكيفية التي تنال بها هذه البركة عن المعصوم ﷺ.

وينقسم التبرك إلى قسمين :

القسم الأول : التبرك المشروع وهو أنواع :

(١) التبرك بذات النَّبيِّ ﷺ وآثاره ، فقد وردت الأدلة الصحيحة المتواترة بثبوت ذلك لما جعل الله - عزَّ وجلَّ - فيه من بركة خاصة صلوات الله وسلام عليه ، وهذا في حياته ﷺ وهي منقطعة بعد وفاته .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا)[(١)] .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا الْمَاءُ ، فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا ، فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ ، فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا)[(٢)] .

وقال : أنس (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَلَّاقُ يَحْلِقُهُ ، وَأَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ)[(٣)] .

وقد روى البخاري في صحيحه قصة صلح الحديبية وفيه :

ثُمَّ جَعَلَ عُرْوَةُ يَرْمُقُ صَحَابَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُخَامَةً ، إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ ، وَإِذَا

(1) البخاري (٥٧٣٥) ، ومسلم (٢١٩٢) .

(2) مسلم (٢٣٢٤) .

(3) مسلم (٢٣٢٥) .

أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ)[1] .

فهذه الأدلة وغيرها تدل على أنَّ ذات النَّبِيِّ ﷺ مباركة وكذلك ما انفصل من شعره أو عرقه وآنيته وملابسه مما جعل الله فيه بركة وخيرًا كثيرًا .

(٢) التبرك بذكر الله – عزَّ وجلَّ – ومجالسة الصالحين وهذا واضح من الكثير من الأدلة الشرعية الثابتة في الكتاب والسُّنَّة ، منها ما رواه البخاري في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ ، قَالَ : فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، قَالَ : فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالُوا : يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيُمَجِّدُونَكَ ، قَالَ : فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ ، قَالَ : فَيَقُولُ : وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً ، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا ، وَتَحْمِيدًا ، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا ، قَالَ : يَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَا ، وَاللَّهِ

---

(1) البخاري (٢٧٣١).

يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ، قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ أَنَّـهُمْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُـونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا ، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا ، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً ، قَالَ : فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالَ : يَقُولُـونَ : مِنَ النَّارِ ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ: لَا ، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ، قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا ، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً ، قَالَ : فَيَقُولُ : فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، قَالَ : يَقُولُ : مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ ، قَالَ : هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[1] .

فقد دلَّ الحديث على بركة مجالس الذكر وأنها من أعظم أسباب نيل مغفرة الله ، بل إن بركتها تتعدى إلى من جلس فيها وإن لم يكن من أهلها .

(٣) التبرك بالصلاة والتعبد في المساجد بصفة عامة ، وفي المساجد الثلاثة وهي المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى ، وذلك لفضيلة الصلاة فيها وتميزها عن غيرها ، فقد ثبت في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال : (صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ؛ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ)[2] ، وفي مسند الإمام أحمد – رحمه الله –

(1) البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .
(2) البخاري (١١٩٠) ، مسلم (١٣٩٤) .

زيادة: (وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي هذا)، ولكن لا يجوز التبرك بالتمسح بجدرانها أو أعمدتها أو أبوابها وأعتابها بحجة أنها أماكن مباركة لعدم ورود الدليل بذلك .

(٤) التبرك بتناول بعض الأطعمة والأشربة والأدوية التي وردت الأدلة بثبوت البركة فيها ومن ذلك :

أ—زيت الزيتون فقد قال تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [سورة النور : ٣٥].

وفي الحديث النبوي الشريف يقول عليه الصلاة والسلام : (كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ)[١] .

ب– اللبن وشربه والاستزادة منه ففي الحديث وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَامًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَنًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِي مَكَانَ الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ غَيْرَ اللَّبَنِ)[٢] .

(1) الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٩٧) وصححه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٢/ ٣٩٨) ووافقه الذهبي .

(2) الترمذي (٣٤٥٥) ، أبو داود (٣٧٣٠) ، ابن ماجه (٣٣٢٢) ، وحسنه الإمام الألباني –رحمه الله – .

ج – العسل وشربه والاستشفاء به فقد ورد الدليل في ذلك قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٦٩] .

د – ماء زمزم فقد ثبتت بركته بالنص الصريح في قصة أبي ذر – رضي الله عنه – (حين سأله النبي ﷺ عن من كان يطعمه حين قدم إلى مكة المكرمة فقال ما كان لي طعام إلّا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما أجد على كبدي سخفة جوع فقال : أنها مباركة إنها طعام طعم)[1] .

القسم الثاني : التبرك الممنوع وهو أنواع :

(١) التبرك بزيارة الآثار وبعض المواقع التاريخية كدار الأرقم بن أبي الأرقم، وغار حراء ، وغار ثور ، وتقبيل أبواب وأعتاب وجدران نوافذ بعض المساجد التماساً للبركة ، وهذا أمراً مبتدع وممنوع لأن التبرك عبادة، والعبادة لابد فيها من الدليل والمشروعية أي أن العبادة توقيفية ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – وكذلك الغار المذكور في القرآن في قوله تعالى ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة : ٤٠] وهو غار بجبل ثور يماني مكة لم يشرع لأمته السفر إليه وزيارته والصلاة فيه والدعاء ، ولا بنى رسول الله ﷺ مسجداً غير المسجد الحرام ، بل

(١) مسلم (٢٤٧٣) .

تلك المساجد كلها محدثة ، مسجد المولد وغيره ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد ولا زيارة موضع بيعة العقبة الذي خلف منى ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعاً مستحباً يثيب الله عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك وأسرعهم إليه ، ولكان علَّم أصحابه ذلك وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم ، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك ، عُلِمَ أنه من البدع المحدثة التي لم يكونوا يعدونها عبادة وقربة وطاعة ، فمن جعلها عبادة وقربة وطاعة فقد اتبع غير سبيلهم وشرع من الدين ما لم يأذن به الله[1] .

(٢) التبرك ببعض الأزمنة التي لم يرد بشأنها دليل يقتضي ذلك كالاحتفال بالمولد النبوي وليلة الإسراء والمعراج ويوم الهجرة ويوم بدر وغيره مما لم يشرعه الرسول ﷺ لأمته وإنما أحدثه أهل البدع والأهواء .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيماً له والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد ، لا على البدع من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً مع اختلاف الناس في مولده فإنَّ هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه ، ولو كان خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف رضي الله عنهم ، أحق به منا ، فإنهم كانوا أشد

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/ ٢٤٩) .

محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا وهم على الخير أحرص ، وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته وإتباع أمره وإحياء سنته باطناً وظاهراً ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ، فإنَّ هذه هي طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وأكثر هؤلاء الذين تجدونهم حرصاً على أمثال هذه البدع مع ماهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذي لهم به المثوبة ، تجدونهم فاترين في أمر الرسول ﷺ عما أمروا بالنشاط فيه ، وإنما هم بمنزلة من يُحَلِّي المصحف ولا يقرأ فيه أو يقرأ فيه ولا يتبعه وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلي أو يصلي فيه قليلاً)[1] .

(٣) التبرك بذوات بعض الصالحين وآثارهم : التبرك بالذات البشرية مما اختص به النبي ﷺ فقد سبق أن أشرنا إلى أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بجسمه وعرقه وشعره وملابسه وأدواته وفضل وضوئه صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يجوز القياس على ذلك فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يتبركون بآثار ولا فضلات أحد من الخلفاء أو غيرهم من العشرة المبشرين بالجنَّة ، لأن التبرك عبادة تتوقف على الدليل والإتباع لا على التقليد والابتداع ولو كان جائزاً لفعله الصحابة والتابعون يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله – : (إنَّ الصحابة رضي الله

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢٩٥) .

عنهم بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – فهو كان خليفته ولم يفعل شيء من ذلك ولا عمر – رضي الله عنه – وهو كان أفضل الأمة بعده ثم كذلك عثمان ثم علي ثم سائر الصحابة – رضي الله عنهم – الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أنَّ متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها ، بل اقتصروا فيهم على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ ، فهو إذن إجماع منهم على ترك هذه الأشياء)[1] .

وبالجملة فإنَّ التبرك عبادة ، لا يجوز فعله إلاَّ بعد ثبوت الدليل عليه ومن فعله بغير دليل فقد وقع في البدع وربما وقع في الشرك عياذاً بالله .

(١) الاعتصام للشاطبي (٨) .

[٩] بَــــابُ
مَا جَاءَ فِي الذَّبْـحِ لِغَـيْرِ اللَّــهِ

أي من الوعيد على ذلك وبيان أنه شرك أكبر ناقل عن الملة ، لأنه عبادة من أجل العبادات وقُربة من أفضل القُربات المالية ، فصرفه لغير الله شرك ، كمن يذبح لقبر أو شجرة أو حجر أو ملك أو نبي أو ولي أو صالح أو جني وغير ذلك يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] يقول يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] أي اخلص له صلاتك وذبيحتك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى) انتهى [(١)] .

قال مجاهد النُّسُكُ الذبح في الحج والعمرة

(١) عمدة التفسير (١/ ٨٤٧) .

فأمر الله – عزَّ وجلَّ – نبيه محمد ﷺ بأن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله أن صلواته وذبحه ، وما يفعله في الحياة من الأعمال وما يموت عليه من الإيمان والأعمال الصالحة جميع ذلك خالصاً لله دون مَنْ سواه ، وأنه أول من انقاد واستسلم لطاعة الله – عزَّ وجلَّ – من هذه الأمة .

يقول العلامة ابن سعدي – رحمه الله – وإذا ثبت أن الذبح لله من أجلِّ العبادات وأكبر الطاعات ، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام .

فإنَّ حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده : (أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله) .

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص ، وصرفه لغيره شرك وكفر .

فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء .

كما أنَّ حد الشرك الأصغر هو : (كل وسيلة وذريعة يُتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة) .

فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر ، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب ، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها ، والله المستعان[1] .

(1) القول السديد ، لابن سعدي – رحمه الله – (ص ٤٧ – ٤٨).

[١٠] بَـــابٌ

لَا يُـذْبَـحُ لِلَّـهِ بِـمَـكَـانٍ يُذْبَـحُ فِـيـهِ لِغَـيْـرِ اللَّـهِ

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله فنفس الفعل لغير الله وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغير الله كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك وهذا خطر وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله، قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليها . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في اقتضاء الصراط المستقيم إن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه متقاضياً لذلك إلا أن يمنعه مانع، ومنها : أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب

الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال ، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان ، وتحقق ما قطعه الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين . وكلما كان القلب أتمَّ حياة ، وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً أو باطناً ، بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتمَّ ، وبعده عن أخلاقه الموجودة في بعض المسلمين أشد ومنها : أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التميز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية . هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم ، فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة من شعب الكفر ، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له [(١)] . انتهى .

قال العلامة عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم ، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ، (١/٩٣–٩٤) .

أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور[1] .

(1) القول السديد للعلامة ابن سعدي – رحمه الله – (ص ٥١) .

[١١] بَـــابٌ

مِـنَ الـشِّـرْكِ الـنَّـذْرُ لِـغَـيْـرِ اللَّـهِ

أي إنه من العبادة ، فيكون صرفه لغير الله شركاً ، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها وهو عبادة وقُربة إلى الله ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقرباً إليه ليشفع له عند الله ، ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادة الله تعالى كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك كذلك هذا لقوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان : ٧] ، ومن أشرك مع الله غيره في القصد والطلب فقد ناقض كلمة التوحيد .

والنذر مصدر نذر ينذر أي أوجب على نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه شرعاً ، تعظيماً للمنذور له .

الفرق بين النذر لغير الله ونذر المعصية :

أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً ، ونذر المعصية لله ولكنه على معصية من معاصيه ، مثل أن يقول لله عليَّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله ، فيكون النذر لله والمنذور معصية ، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم والحلف بغير الله ، فالحلف بغير الله مثل والنَّبِيِّ لأفعلن كذا وكذا ونظيره النذر لغير الله ، والحلف بالله على محرم مثل والله لأسرقن ، ونظيره نذر المعصية ، وحكم النذر لغير الله شرك ، لأنه عبادة

للمنذور له ، وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله فيكون مشركاً وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقاً ولا تجب فيه كفارة ، بل هو شرك تجب التوبة منه كالحلف بغير الله ، فلا ينعقد ، وليس فيه كفارة ، وأما نذر المعصية فينعقد لكن لا يجوز الوفاء به وعليه كفارة يمين كالحلف بالله على المحرم ينعقد وفيه كفارة .

شروط النذر لله تعالى :

(١) أن يكون طاعة لله – عزَّ وجلَّ – .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ)) [١] .

(٢) أن يكون مما يُطيقه العبد :

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ ،أَنَّهُ قَالَ : نَذَرَتْ أُخْتِي أَنْ تَمْشِيَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ فَأَمَرَتْنِي أَنْ أَسْتَفْتِيَ لَهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لِتَمْشِ وَلْتَرْكَبْ [٢] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ : فَسَأَلَ عَنْهُ ؟ فَقَالُوا : أَبُو إِسْرَائِيلَ : نَذَرَ أَنْ يَقُومَ ،

---

(1) البخاري (٦٦٩٦) .

(2) البخاري (١٨٦٦) ، ومسلم (١٦٤٤) .

وَلَا يَقْعُدَ ، وَلَا يَسْتَظِلَّ ، وَلَا يَتَكَلَّمَ ، وَيَصُومَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" : مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ، وَلْيَسْتَظِلَّ ، وَلْيَقْعُدْ ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ)) [(١)] فأمر ﷺ بترك مالم يكن مُطيقَه ولم يكن مشروعاً ، وأمره بإتمام الصومِ لكونه يُطيقه ولكونه مشروعاً .

وعَنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رَأَى شَيْخاً يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ قَالَ: (مَا بَالُ هَذَا؟) قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِي قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ) وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ. [(٢)]

(٣) أن يكون فيما يملك

لقوله ﷺ ((لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ)) [(٣)] .

(٤) لا يكون في موضع كان يُعبد فيه غير الله تعالى أو ذريعةً إلى عبادة غير الله تعالى

عَنْ ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ)؟. قَالُوا: لَا. قَالَ: (فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِم)؟

---

(1) البخاري (٦٧٠٤) .

(2) البخاري (٦٧٠١) ، ومسلم (١٦٤٢)

(3)مسلم (١٦٤١) .

قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : (أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّـهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابنُ آدَمَ) [(١)] رَوَاهُ أَبُودَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا .

(٥) أن لا يكون النذر معلقاً بحصول شيءٍ ، فلا يعتقد الناذرُ تأثير النذر في حصوله . لحديث ابن عمر – رضي الله عنهما – أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ)) [(٢)] .

وفي رواية نهى النَّبيُّ ﷺ عن النذر ، وَقَالَ : ((إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ)) [(٣)] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((لَا يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قُدِّرَ لَهُ وَلَكِنْ يُلْقِيهِ النَّذْرُ إِلَى الْقَدَرِ قَدْ قُدِّرَ لَهُ فَيَسْتَخْرِجُ اللَّـهُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ فَيُؤْتِي عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُؤْتِي عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ)) [(٤)] .

---

(1) أبو داود (٣٣١٣) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع (٢٥٥١) .
(2) البخاري (٦٦٩٢) ، ومسلم (١٦٣٩) .
(3) البخاري (٦٦٠٨) ، ومسلم (١٦٣٩) .
(4) البخاري (٦٦٩٤) ، ومسلم (١٦٤٠) .

[١٢] بَـابٌ

مِـنَ الشِّـرْكِ الاسْتِـعَـاذَةُ بِغَيْـرِ اللَّـهِ

الاستعاذة الالتجاء والاعتصام والتحرز وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً وملجأً فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه وفر إليه فالعياذ لدفع الشر وأما اللياذ فطلب الخير ، قال الشاعر :

يـامن ألـوذ بـه فـيها أؤملـه ... ومـن أعـوذ بـه ممـا أحـاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – معنى (أعوذ) : ألتجئ واعتصم وأتحرز وفي أصله قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الستر ، **والثاني** : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال إنه من الستر ، فقال : العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها (عُوَّذ) بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها : سموه عوذا . فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستجن به منه .

ومن قال هي لزوم المجاورة ، قال العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه (عوذ) لأنه اعتصم به واستمسك به ، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه .

والقولان حق ، والاستعاذة تنتظمها معاً ، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه ، مستمسك به ، معتصم به ، قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا اشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به فهرب منه ، فعرض له أبوه في طريق هربه فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفر إليه وألقى نفسه إليه واعتصم به والتجأ إليه .

وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم ، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة . ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته ، وإجلاله ومهابته فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك[1] .

وقال في موضع آخر المستعاذ به هو الله وحده ، رب الفلق ، ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به

(1) تفسير المعوذتين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (ص ١٢ – ١٣) .

، ولا يستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره .

وقد أخبرنا تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً فقال حكاية عن مؤمني الجن : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن : ٦] جاء في التفسير أي : كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أي إذا نزلوا وادياً أو مكان موحشاً من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم ، كما قال قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي : إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة . وقال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي ، قال فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك وقال أبو العاليه، والربيع ، وزيد بن أسلم رهقاً أي خوفاً ، وقال ابن عباس ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي إثماً وكذا قال قتادة . وقال مجاهد زاد الكفار طغياناً [1] .

(1) عمدة التفسير (٣/ ٥٨٦) .

وأحتج أهل السُّنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة، بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ)) وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً .

ونظير ذلك قوله : ((أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ)) فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق، وذلك قوله ((أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ)) وقوله ((أعوذُ بِنُورِ وَجهِكَ الَّذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ)) وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته[1] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مجموع الفتاوى إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته، ولهذا أحتج السلف كأحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق فمما أحتج به بقول النبي ﷺ ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ)) قالوا فقد استعاذ بها، ولا يستعاذ بمخلوق، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ) فنهى عن الرقى التي فيها شرك، كالتي فيها إستعاذة بالجن كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن : ٦] ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره، التي تتضمن الشرك، بل نهوا عن

(1) تفسير المعوذتين للإمام ابن القيم – رحمه الله – ، (ص ١٧ – ١٨) .

كل ما لا يعرف معناه من ذلك ، خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف الرقى المشروعة فإنه جائز فإذاً لا يجوز أن يقسم لا قسماً مطلقاً ولا قسماً على غيره إلا بالله -عزَّ وجلَّ- ، ولا يستعيذ إلا بالله - عزَّ وجلَّ - [1] .

وقد أمر الله - عزَّ وجلَّ - عباده في كتابه بالاستعاذة به في عدة آيات فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] .

وفي المعوذتين وغيرهما . فالاستعاذة عبادة يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له ولا يُستعاذ بغيره .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (١/ ٢٣٤) .

[١٣] بَـــابٌ

مِـنَ الـشِّـرْكِ أَنْ يَـسْـتَـغِـيثَ بِـغَـيْـرِ اللَّـهِ أَوْ يَـدْعُـوَ غَـيْـرَهُ

المناسبة ظاهرة أن من أنواع الشرك في العبادة الاستغاثة بغير الله ودعاء غير الله ، باب من الشرك أي في بيان نوع من أنواع الشرك .

الاستغاثة دعاء مخصوص في حالة الشدة والكرب والحاجة وهي طلب الغوث وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصرة **والاستعانة** طلب العون ، والغياث هو المغيث وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ، أي مدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ، ومجيبهم ومخلصهم ، **والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، وأما الدعاء فهو أعم منها ، لأنه يكون من المكروب وغيره ، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص** ، فبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة والمراد تحريم الاستغاثة بغير الله ، أو دعاء غيره من الأموات والغائبين ، وأنه من الشرك الأكبر .

قال المصنف – رحمه الله تعالى – **(أو يدعو غيره)** ، قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – في فتح المجيد اعلم أنَّ الدعاء نوعان : **دعاء عبادة ، ودعاء مسألة** . ويُراد به في القرآن هذا تارة ، وهذا تارة . ويُراد به مجموعهما . فدعاءُ المسألة : **هو طلب ما ينفع الداعي ، من جلب نفع أو كشف ضر** . ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ،

ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة : ٧٦] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٧١] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٦]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : **فكلُّ دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاء المسألة ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة** ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠ – ٤١] وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد : ١٤] . وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يُحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات

وكذلك الذاكر لله ، والتالي لكتابه ونحوه ، طالبٌ من الله في المعنى ، فيكون داعياً عابداً .

فتبين بهذا قول شيخ الإسلام : إنَّ دعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة ، كما أنَّ دعاء المسألة متضمنٌ لدعاء العبادة . وقد قال تعالى عن خليله إبراهيم – عليه السلام – ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٤٨ – ٤٩] فصار الدعاءُ من أنواع العبادة ، فإنَّ قوله : ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ كقول زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤] .

وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥ – ٥٦] وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة فإنَّ الداعي يرغبُ إلى المدعو ، ويخضع له ويتذلل ، وغير ذلك ، وضابط هذا: أنَّ كل أمرٍ شرعه الله لعباده وأمرهم به ، ففعله لله عبادة . فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشركٌ ، مصادماً لما بعث الله به

رسوله من قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر : ١٤] . وسيأتي هذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام في (الرسالة السُّنية) : فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليُعلم أنَّ المنتسب إلى الإسلام والسُّنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام ، لأسباب منها : الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ، بل الغلو في المسيح – عليه السلام – فكلُّ من غلا في نبيٍّ أو رجلٍ صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : ياسيدي فلان انصُرني أو أغثني ، أو أرزقني ، وأنا في حسبك ، ونحو هذه الأقوال فكلُّ هذا شركٌ وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكُتب ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعَى معه إلهٌ آخر . والذين يدعون مع الله آلهةً أُخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلُق الخلائق أو تُنزل المطر ، أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يَعبدونهم أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس : ١٨] فبعث الله سبحانه رسله : تنهى أن يُدعى أحدٌ من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة ، انتهى .

وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائط ، يتوكلُ عليهم ويدعوهم ويسألهم ، كفر إجماعاً . نقله عنه صاحبُ (الفروع) ، وصاحبُ (الإنصاف) ، وصاحبُ (الإقناع) ، وغيرهم وذكره في (مسألة الوسائط) ، ونقلتُه منه في (الرد على ابن جرجيس) وقال : ابن القيم – رحمه الله – : ومن أنواعه – أي الشرك طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم ، فإنَّ الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً لمن إستغاث به أو سأله أن يشفع لهم إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي في (رده على السبكي) إنَّ المبالغة في تعظيمه أي : الرسول ﷺ واجبة إن أُريد بها المبالغة بحسب ما يراه كلُّ أحد تعظيماً حتى الحج إلى قبره ، والسجود له والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطي ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضي حوائج السائلين ، ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء فدعوى المبالغة في هذا التعظيم : مبالغة في الشرك وإنسلاخٌ من جملة الدين . وفي (الفتاوى البزازية) من كتب الحنفية : قال عُلماؤنا من قال : أرواحُ المشايخ حاضرةٌ تعلم : يكفر .

وقال الشيخ صُنع الله الحلبي الحنفي في كتابه في الرد على من ادَّعى أنَّ للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات يدَّعون أنَّ للأولياء تصرُّفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهم تُكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدالٌ ونُقباء وأوتادٌ ونجباء وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة [(١)]، والقطب: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس وجوَّزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في الفتاوى أما الاسماء الدائرة على ألسنة الناس كثير من النساك والعامة مثل (الغوث) الذي بمكة (والأوتاد الأربعة) (والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين) و(النجباء الثلاثمائة): فهذه أسماء ليس موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح، ولا ضعيف انتهى. مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣٧) وقال في موضع آخر من الفتاوى وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعرفون يرفعون إلى الله حوائجهم، لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لايتم الإيمان إلا به، ثم مع هذا يقولون: إنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يدرك له حس ولا خبر. وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهات للرافضة من بعض الوجوه، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية، والنصيرية، ونحوه في السابق والتالي والناطق، والأساس والجسد وغير ذلك من الترتيب الذي ما نزل الله به من سلطان) انتهى، مجموع الفتاوى (٦/ ٢٤٠).

الأبدي والعذاب السَّرمدي ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المُصدَّق ومخالفةٍ لعقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفي التنزيل : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ثم قال : وأمَّا قولهم : إنَّ للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات فيردُّه قوله تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ [النمل : ٦١ – ٦٤] ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الشورى : ٤٩] ، ونحوها من الآيات الدالة على أنَّه المتفرِّدُ بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيءٍ ما بوجهٍ من الوجوه . فالكلُّ تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً ، وإحياءٍ وإماتةً وخلقاً .

وتمدَّح الربُ تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ [فاطر:١٣ – ١٤] وذكر آيات في هذا المعنى . ثم قال : فقوله في الآيات كلها ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي: من غيره ، فإنه عامٌ يدخل فيه من اعتقدته ، من وليٍّ وشيطانٍ تستمدُّه ، فإنَّ من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمدُّ غيره ؟ إنَّ هذا القول وخيمٌ ، وشركٌ عظيم . إلى أن قال : وأمَّا القول بالتصرُّف بعد الممات ،

فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠]، ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨]، وفي الحديث : (**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَـةٍ**)[1] فجميع ذلك، وما هو نحوه : دالٌّ على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأنَّ أرواحهم مُمسكة، وأنَّ أعمالهم منقطعة عن زيادة أو نقصان فدلَّ ذلك : على أن ليس للميت تصرفٌ في ذاته، فضلاً عن غيره . فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرَّف في غيره ؟! فالله سبحانه يُخبر أنَّ الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون : إنَّ الأرواح مطلقة متصرِّفة ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠].

قال: وأمَّا اعتقادهم أنَّ هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيءٌ من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدِّي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران وأُسيد بن حُضير، وأبي مسلم الخولاني قال : وأما قولهم فيستغاثُ بهم في الشدائد . فهذا أقبحُ مما قبله وأبدع، لمصادمته قوله جل ذكره :﴿ أَمَّن

(١) مسلم (١٦٣١).

يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢]، ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤]، وذكر آياتٍ في هذا المعنى. ثم قال: فإنه جل ذكره قرَّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كلِّه، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المنفردُ بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملكٍ ونبيٍّ ووليٍّ.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية، من الأمور الحسية: في قتال، أو إدراك عدو أو سبُع أو نحوه، كقولهم: يالزيد، ياللمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل. وأمَّا الاستغاثةُ بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله، لا يُطلب فيها غيره قال: وأمَّا كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم، كما تفعله جاهليةُ العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أنَّ لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كُربةٍ أو قضاء حاجةٍ تأثيراً: فقد وقع وادي جهلٍ خطير، فهو على شفا حُفرة من السعير، وأمَّا كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرمات، فحاشا لله أنْ تكون أولياءُ الله بهذه المثابة، فهذا ظنُّ

أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس:٢٣] . فإنَّ ذكر ما ليس من شأنه النفعُ ولا دفع الضر ، من نبيٍّ ووليٍّ وغيره على وجه الإمداد منه : إشراكٌ مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : وأمَّا ما قالوه : إنَّ منهم أبدالاً ونقباء ، واوتاداً ونجباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس : فهذا من موضوعات إفكهم . كما ذكره القاضي المحدِّث أبو بكر بن العربي في (سراج المريدين) وابنُ الجوزي ، وابن تيمية. انتهى بإختصار .

والمقصود : أنَّ أهل العلم مازالوا ينكرون هذه الأمور الشركية ، التي عمَّت بها البلوى ، واعتقدها أهلُ الأهواء . فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب ، والبصير النبيل يُدرك الحق من أول دليل . ومن قال قولاً بلا بُرهان ، فقولُه ظاهرُ البُطلان ، مخالفٌ ما عليه أهل الحق والإيمان ، المتمسكون بمُحكم القرآن ، المستجيبون لداعي الحق والإيمان والله المستعان وعليه التكلان [١] . انتهى .

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – ص (١٤٩ – ١٥٤).

[١٤] بَـــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) ﴾ [الأعراف].

لما بَيَّنَ أنواع الشرك في الأبواب السابقة بَيَّنَ لك البراهين القاطعة الدالة على أنه لا يستحق أحد العبادة إلا الله - عزَّ وجلَّ - ودلل على ذلك بالأدلة ، ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة فمن الظلم والحيف أن تصرف حق الله - عزَّ وجلَّ - لغيره سبحانه وتعالى وفيه الرد على كل مشرك كائناً من كان وبيان حال المدعوين من دون الله ، أنهم لا ينفعون ولا يضرون ، سواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم ، وقوله : ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ ، وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله من لا يخلق شيئاً ، وليس فيه ما يستحق به العبادة ، فإنه إذا كان معبودهم لا يخلق شيئاً ، بطلت عبادتهم له ، وتقرر أن الخالق سبحانه هو المستحق للعبادة وحده ، وقوله : ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي ومن أشركوه مع الله في عبادته مخلوق ، والمخلوق لا يستحق أن يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها ، وأخبر أنهم مع ذلك ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي لمن سألهم النصرة ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ وهاتان الصفتان أبلغ مما قبلهما ، أي فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ، ولا نصر نفسه ، وذلك برهان ظاهر قاطع ببطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله ،

فإنه إذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب أولى ، بل من هذه حاله فهو في غاية العجز ، فكيف يكون إلهاً معبوداً ، فبطل تعلق المشركين بهذه البراهين ، وهي كونهم لا يخلقون شيئاً بل يُخلقون ، عبيد لمن خلقهم لعبادته ، والعبد لا يكون معبوداً ، ولا قدرة لهم على نفع عابديهم ، ولا على نفع أنفسهم وهذا كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج : ٧٣ – ٧٤] ويكفيك في ذلك قوله تعالى لأكرم الخلق : ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن : ٢١-٢٣]، وقوله : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨] ، وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء:٥٦] ، وقال تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان:٣] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ

كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد:١٦]
ومن المعلوم أنهم كانوا قد عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين والأشجار والأحجار وغير ذلك ولهذا أخبر سبحان وتعالى عن الملائكة أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠ – ٤١] ، وكذلك أخبر الله – عزَّ وجلَّ – أن الأنبياء يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧] ، وكذلك أخبر الله – عزَّ وجلَّ – أن الصالحين وغيرهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض وَيَلْعَنُ بعضهم بعضا قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

[العنكبوت : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧]، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس:٢٨-٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النحل:٨٦-٨٧] ، وقوله تعالى عن المشركين ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨]، وقال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٣-١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ

ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾[مريم:٨١-٨٢]، فتبين بعد هذا أن الله - عزَّ وجلَّ - أبطل الشرك وما يتعلق به المشركون ففي قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]، **إبطال للشرك من أربعة وجوه.**

(١) أن هذه المعبودات لا تخلق شيئاً ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

(٢) أنهم مخلوقون من العدم فهم مفتقرون إلى الله - عزَّ وجلَّ -.

(٣) أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أبلغ من قوله لا ينصرونهم لأنه لو قال لا ينصرونهم فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون لكن لما قال: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

(٤) أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾، قال العلامة عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - **وكذلك من براهين التوحيد** معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مع الله فإنَّ جميع ما يُعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق وهو الرازق لكل مرزوق المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء.

في أي برهان أعظم من هذا البرهان : الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه ، وعلى لسان رسوله ، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق ، ودليل كذلك على بطلان الشرك .

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره ؟ فتبًّا لمن أشرك بالله وساوى به أحداً من المخلوقين ، لقد سلب عقله بعدما سلب دينه .

فنعوتُ الباري تعالى وصفاتُ عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة إلا هو .

وكذلك صفات المخلوقات كلها ، وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربهم في كل شؤونها ، وأنه ليس لها من الكمال ، إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين على بطلان إلهية شيء منها .

فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له والثناء عليه ، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفاً ورجاءً وطمعاً ، والله أعلم[1] .

---

(١) القول السديد للعلامة ابن سعدي – رحمه الله – ، (ص ٥٩ – ٦١) .

[١٥] بـــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

أراد المصنف – رحمه الله تعالى – بالترجمة بهذه الآية بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله وأقربهم منه منزلة، قال الله تعالى في وصفهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٤٩ – ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠-٤١] ، فإذا كانت هيبتهم وخوفهم من الله عند سماعهم لكلامه فكيف يُدعَون من دونه وهم لا يملكون شيئاً لمن دعاهم ، وإذا كانوا لايملكون شيئاً فغيرهم من الأنبياء والأولياء أولى أن لا يُدعى ، ففيها ردٌّ على جميع فرق المشركين الذين يدعون من لا يُداني الملائكة في صفة من صفاتهم ، وهذه الآية مرتبطة بالآيةِ التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] ، **وهذه الآية قال فيها أهل العلم أنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب بأمور أربعة :**

الأول : أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله ، والذي لا يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر ، فهو تعالى هو الذي يملكهم ويدبِّرهم ، ويتصرف فيهم وحده .

الثاني : قوله : ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ ﴾ أي : في السموات والأرض ، أي وما لهم شرك مثقال ذرة في السماوات والأرض .

الثالث : قوله : ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ ، والظهير : المعين ، فليس لله مُعين ، من خَلْقه ، بل هو الذي يُعينهم على ما ينفعهم ويدفع عنهم مايضرهم ، لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم إلى ربهم فيما قلّ وكثُر من أمور دنياهم وأُخراهم .

الرابع : قوله : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ فلا يشفع عنده أحد إلا إذا أذن له ، كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس : ٣] ، وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعاً من دونه حُرِم شفاعة الشفعاء قال تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر : ٤٣-٤٤] ، وقال تعالى : ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨] ، لأن اتخاذ الشفعاء شرك ، لقوله تعالى في حقهم : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ، والمشرك منفيةٌ الشفاعةُ في حقه ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر ، ٤٨] ، وقال تعالى :﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام : ٩٤] ، وذلك أن مُتخذ الشفيع لابد أن يرغب إليه ويدعوه ، ويرجوه ، ويخافه ، ويُحبه ، لما يؤمِّله منه .

وهذه من أنواع العبادة التي لا يُصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص .

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : من الآلهة التي عُبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أي : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد له ، قال قتادة في قوله : ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ من عون يعينه بشيء : ثم قال تعالى : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ أي لعظمته وكبريائه لا يجتريء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء :٢٨]

ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء ، قال : (**فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعطَه واشفع تُشفع**) ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه ، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي ، وقتادة في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ يقول : جُلِّي عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف – وجاء مرفوعاً – : (حَتَّى إِذَا فرغ) بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ، ولهذا قال : ﴿ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ يعني : المشركين عند الإحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من

الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا . قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : يعني : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : يعني ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا في بني آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لاينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أنَّ الضمير عائد على الملائكة.

هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار :

روى البخاري عن أبي هريرة قال : أن نبي الله ﷺ قال : ((إِذَا قَضَى اللَّهُ فِي السَّمَاءِ أَمْرًا ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٍ عَلَى صَفْوَانَ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، - وَهُمْ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ الآخَرِ - ، وَأَشَارَ سُفْيَانُ بِأَصَابِعِهِ - وَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ فَيُحْرِقُهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ ، حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي أَسْفَلَ مِنْهُ وَيَرْمِيهَا الآخَرُ عَلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ ، فَيُلْقِيَهَا عَلَى فَمِ السَّاحِرِ ، أَوِ الْكَاهِنِ فَيَكْذِبُ عَلَيْهَا مَا يُرِيدُ ، فَيُحَدِّثُ بِهَا النَّاسَ ، فَيَقُولُونَ : قَدْ أَخْبَرَنَا بِكَذَا وَكَذَا ؟ فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا ، فَيُصَدَّقُ

بِالْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)) ، انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[1] .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه قال عبد الرزاق : (من الأنصار) فَرُمِيَ بنجم فاستنار ، قال : " ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية ؟ " قالوا كنا نقول يُولد عظيم ، أو يموت عظيم – قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلِّظت حين بعث النبي ﷺ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " فَإِنَّهَا لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ أَهْلَ سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ ، وَيَتَخَطَّفُ الْجِنُّ وَيُرْمَوْنَ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ" ورواه مسلم والنسائي والترمذي[2] .

---

(1) البخاري (٤٨٠٠) ، أبو داود (٣٩٨٩) ، الترمذي (٣٢٢٣) ، ابن ماجه (١٩٤) .

(2) مسلم (٢٢٢٩) ، النسائي في الكبرى (١١٢٧٢) ، الترمذي (٣٣٢٤) .

وعن ابن عباس وقتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية [1] انتهى .

---

(1) عمدة التفسير (٣/ ٨٨-٩٠) .

[١٦] بَـــابُ
الشَّـفَـاعَـــــةِ

الشفاعة لغة : مصدر من شفع يشفع ، إذا جعل الشيء اثنين والشفع ضد الوتر قال تعالى : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [الفجر : ٣] .

اصطلاحاً : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن ما يتعلق به المشركون من طلب الشفاعة من الأموات والأولياء والصالحين أن ذلك هو عين الشرك وأن الشفاعة التي يظنها من دعا غير الله من الملائكة والأنبياء والأولياء والأموات وغيرهم أنه يشفع كما يشفع الوزير عند الملك منفيه .

قال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب ، لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم : نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون ، ولكن حيث إن لهم عند الله جاهاً عظيماً ومقامات عالية ، ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده ، كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ، ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم .

وهذا من أبطل الباطل ، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم .

فأبطل الله هذا الزعم ، وبين أن الشفاعة كلها له ، كما أن الملك كله له ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله ، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له . فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة .

وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه ، رحمة منه وكرامة للشافع ، ورحمة منه وعفواً عن المشفوع له ، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة ، وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود .

فهذا ما دل عليه الكتاب والسُّنة في تفصيل القول في الشفاعة .

وقد ذكر المصنف – رحمه الله – كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كافٍ شافٍ .

فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم ، وأنه ليس لها من الملك شيء ، لا استقلالاً ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهرة ، ولا من الشفاعة شيء. وإنما ذلك كله لله وحده ، فتعين أن يكون المعبود وحده[1] .

---

(1) القول السديد للعلامة ابن سعدي – رحمه الله – (ص ٦٩) .

الشفاعة نوعان :

(١) شفاعة منفية : وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله -عزَّ وجلَّ- .

(٢) الشفاعة المثبتة : وهي التي تطلب من الله -عزَّ وجلَّ- ولا تكون إلا لأهل التوحيد .

أقسام الناس في الشفاعة :

الناس في الشفاعة ثلاث طوائف ، طرفان ووسط :

(١) طائفة أنكروها ونفوها كالخوارج والمعتزلة المكفرين للمسلمين بالمعاصي والذنوب فإنهم نفوا الشفاعة وأنكروها وردوا الأحاديث الواردة في ذلك فنعوذ بالله من رد الحق ونسأل الله العافية والسلامة .

(٢) طائفة أثبتوها وغلوا في إثباتها ، حتى جوزوا طلبها من الأموات والأحياء والأولياء والصالحين والأشجار والأحجار وهؤلاء عباد القبور والأصنام كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] وذلك أن مُتخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويُحبه ، لما يؤمِّلُه منه . وهذه من أنواع العبادة التي لا يُصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص .

(٣) أهل السُّنة والجماعة أثبتوا الشفاعة الشرعية ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ، ولا تطلب إلا من الله كأن تسأله تعالى أن يُشفع فيك نبيه محمد ﷺ فإن الشفاعة محض فضل وإحسان .

الأدلة على إثبات الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الشافعين من الكتاب والسُّنة .

أولاً : الأدلة من القرآن

قوله تعالى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه : ١٠٩]، وقوله تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وغير ذلك من الآيات الدالة على ثبوت الشفاعة بعد الإذن من الله - عزَّ وجلَّ - وفي حالة الرضى عن المشفوع .

ثانياً : الأدلة من السُّنة

الأدلة من السنة كثيرة منها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - ؛ **أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ - أَوْ نَفْسِهِ -»** [1] .

(1) أخرجه البخاري : (٩٩) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ (أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ[1] مِنْهَا نَهْسَةً وَقَالَ : (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ ائْتُوا آدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ

---

(1) فنهس : النهس أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ

يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)[(١)] .

وَعنْ أَنسِ بْن مالكٍ - رضي الله عنه - : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفعُ فِي الْجنَّةِ ، وَأَنا أَكْثَرُ الأنبياءِ تَبعاً)[(٢)] .

وَعنْ أَنسِ بْن مالكٍ - رضي الله عنه - : أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوتِي شَفَاعَةً لِأُمتِي يَوْمَ الْقِيَامةِ)[(٣)] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ(قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا)[(٤)] .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رضي الله عنهما- قَالَ:(قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ

---

(1) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) .
(2) أخرجه مسلم (١٩٦) .
(3) أخرجه البخاري (٦٣٠٥) ، ومسلم (٢٠٠) .
(4) أخرجه مسلم (١٩٩) .

وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِلَّا حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (1)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) (2) .

أقـــوال الأئمـــة :

قال الإمام أحمد – رحمه الله – عن الشفاعة (وأن الله يخرج أقواماً من النار بشفاعة محمد ﷺ) (3) .

وقد عقد الإمام ابن خزيمة – رحمه الله – باباً مطولاً في كتاب التوحيد بعنوان : (باب ذكر أبواب شفاعة النبي ﷺ التي قد خُصَّ بها دون الأنبياء سواه صلوات الله عليه وسلامه لأمته وشفاعة النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وشفاعة بعض أمته لبعض أمته ممن أوبقتهم خطاياهم وذنوبهم فأُدخلوا النار ليخرجوا منها بعد ما قد عُذبوا فيها بقدر ذنوبهم وخطاياهم التي لا يغفر الله لهم ولم يتجاوز لهم

(1) أخرجه البخاري (٦١٤) .

(2) أخرجه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

(3) طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٤) .

عنها بفضله وجوده، بالله نتعوذ من النار . ثم ساق الأحاديث والآثار التي تثبت الشفاعة للنبي ﷺ [(١)] .

وعقد الإمام الآجري في كتابه الشريعة باباً بعنوان : (وجوب الإيمان بالشفاعة) قال فيه : (اعلموا رحمكم الله أن المنكر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارجٍ منها ، وهذا مذهب المعتزلة يكذبون بها وبأشياء سنذكرها إن شاء الله مما لها أصلاً في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - وسنن رسول الله ﷺ ، وسنن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن تبعهم بإحسان وقول فقهاء المسلمين . والمعتزلة يخالفون هذا كله لا يلتفتون إلى سنن الرسول ﷺ ولا إلى سنن الصحابة - رضي الله عنهم - وإنما يعارضون بمتشابه القرآن وبما أراهم العقل عندهم . وليس هذا طريق المسلمين وإنما هذا طريق من قد زاغ عن طريق الحق ولعب به الشيطان وقد حذرنا الله - عزَّ وجلَّ - ممن هذه صفته وحذرناهم النبي ﷺ وحذرناهم أئمة المسلمين قديماً وحديثاً) [(٢)] .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي - رحمه الله - (والشفاعة التي ادَّخرها لهم حقٌّ . كما رُوى في الأخبار) [(٣)] .

---

(1) كتاب التوحيد لابن خزيمة (٢٤١) .

(2) الشريعة للآجري (٣٣١) .

(3) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٨٢) .

قال العلامة السفاريني – رحمه الله – .

فكـــن مطيعـــاً واقـــفُ أهـــل الطاعـــة
في الحـــــوض والكـــــوثر والــــــشفاعة

فإنَّـــــها ثابتـــــةٌ للمـــــــصطفى
كغـــيره مـــن كـــل أربـــاب الوفـــا

مـــن عــــالم الرُّســـل والأبـــرار
ســـوى التَّـــي خُـــصت بـــذي الأنـــوار

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – في شرحه للعقيدة السفارينيه قال قوله : فكن مطيعاً واقفُ : أي اتبع والمراد بقفوهم اتباع آثارهم ، كن مطيعاً لأوامر الله ومن أوامر الله التصديق بما أخبر الله به ورسوله يعني فصدق بهذه الأشياء بثبوتها)[1] .

وقال – رحمه الله – في شرح العقيدة الواسطية . وهذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان ، المعتزلة والخوارج ، لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما في فاعل الكبيرة أنه مخلد في نار جهنم ، فيرون من زنا كمن أشرك بالله ، لا تنفعه الشفاعة ، ولن يأذن الله لأحد بالشفاعة له . وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث في ذلك)[2] .

(1) شرح العقيدة السفارينية للعلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – (٤٩١).
(2) شرح العقيدة الواسطية للعلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – (٢/١٧٨) .

قال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي – رحمه الله –

كَذَا لَهُ الشفاعةُ العظمى كما
قد خصَّهُ اللَّهُ بِهَا تكرُّما
مِن بعدِ إذن اللَّهِ لا كما يَرَى
كُلُّ قُبورِيٍّ عَلَى اللَّهِ افترَى[1]

شروط الشفاعة :

الشفاعة التي وردت النصوص الشرعية بإثباتها وردت مقيدة بشرطين أساسيين لا تتحقق الشفاعة إلا بوجودهما وهما :

الأول : الإذن من الله للشافع كي يشفع لأن الشفاعة ملك لله وحده قال تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[الزمر : ٤٤] .

وليس للشافع حق في طلبها إلا بعد الإذن من المالك لها وهو الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ : ٢٣] .

الثاني : الرضى عن المشفوع فيه بأن يكون أهلاً للشفاعة لأن المشرك لاتنفعه الشفاعة ، قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨] ، والدليل على الشرط الأول والثاني ، قوله تعالى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي

---

(١) سُلَّم الوصول للعلامة حافظ الحكمي – رحمه الله – .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٦]، وقوله تعالى : ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ [طه:١٠٩] .

أنـــواع الشفاعـــة :

أنواع الشفاعة قسمان :

القسم الأول : ما اختص به النبي ﷺ ذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله – أنها ستة أنواع .

الأول : الشفاعة الكبرى : التي يتأخَّر عنها أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول : (**أنا لها**) وذلك حين يرغب الخلائق إلى لأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يُرِيحهم من مقامهم في الموقف وهذه شفاعةٌ يختص بها لا يشاركه فيها أحد .

الثاني : شفاعته لأهل الجنة في دخولها : وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العُصَاة من أُمَّته قد أستوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

الرابع : شفاعته في العُصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السُّنَّة قاطبة ، وَبدَّعُوا من أنكرها وَصَاحُوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ، ورفعة درجاتهم وهذه مما لم يُنَازع فيها أحد ، وكلها مُخْتَصَّة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليّاً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١].

السادس : شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يُخَفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده[1] انتهى .

القسم الثاني : الشفاعة المشتركة : التي يشاركه صلوات الله وسلامه عليه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون وهو نوع واحد فقط وهي الشفاعة في أهل الكبائر ممن دخل النار ودليل هذا النوع عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رضي الله عنهما – (**عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ قَوْمًا مِنْ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ**)[2]

قال ابن كثير – رحمه الله – : وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا به في ذلك جهلاً منهم بصحة الأحاديث وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته[3] .

(1) تهذيب سنن أبي داود للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٧/ ١٣٣ – ١٣٤) .

(2) مسلم (١٩١) .

(3) النهاية في الفتن والملاحم للإمام ابن كثير – رحمه الله – (٢/ ١٧٩) .

يقول العلامة حافظ بن أحمد الحكمي – رحمه الله – .

يَـــشفَعُ أولاً إلـــى الـــرحمنِ فـــي
فَـــصْلِ القــضاءِ بـــين أهـــلِ الموقِـــفِ

مِـــنْ بعـــدِ أن يَطلُبهَـــا النـــاسُ إلى
كـــل أولي العـــزمِ الهـــداةِ الفُـــضَلا

وثانيـــاً يَـــشفَعُ فـــي اســـتفتاحِ
دار النعـــــيمِ لأولي الفـــــلاحِ

هـــذا وهاتـــانِ الـــشفاعتانِ
قـــد خُـــصَّتا بـــه بـــلا نُكـــرانِ

وثالثـــاً يَـــشفَعُ فـــي أقـــوامٍ
مـــاتوا عـــلى ديـــن الهـــدى والإســـلامِ

وأوبَقَتْـــهُم كثـــرةُ الآثـــامِ
فـــأُدخِلوا النـــارَ بـــذا الإجـــرامِ

أن يُخْرجَـــوا منهـــا إلـــى الجنـــانِ
بفـــضلِ ربِّ العـــرشِ ذي الإحـــسانِ

وبعـــده يَـــشفَعُ كُـــلُ مُرسَـــلٍ
وكُـــلُ عبـــدٍ ذي صـــلاحٍ ووليِ

ويُخـــرِجُ اللَّـــهُ مِـــنَ النــيرانِ
جميــع مـــن مـــات عـــلى الإيـــمانِ
فـــي نهـــرِ الحيـــاةِ يُطرَحـــونا
فَحْمـــاً فيحيـــون ويَنْبُتُونَـــا
كـــأنما ينبُـــتُ فـــي هيئاتِـــهِ
حـــبُّ حَمِيـــلِ الـــسيلِ فـــي حافاتِـــهِ[1]

(1) سُلَّم الوصول للعلامة حافظ الحكمي - رحمه الله -.

[١٧] بَـــابُ

قَوْلِ اللَّـهِ تَـعَالَـى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]

أراد المصنف – رحمه الله – الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون ، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب وهداية القلوب وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة ، ومناسبة هذا الباب للذي قبله أن لو كانت هداية الناس بيد النبي ﷺ لنفع أقرب الناس إليه وهو عمه فدل على أنه ليس بيده النفع والضر فكما أن الشفاعة ليست بيده كذلك الهداية ليست بيده ، فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه ، تبين له بطلان قولهم وفساد شركهم ، لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله ، وأعظمهم جاهاً عنده ، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته ، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه ، ثم استغفر له بعد موته فلم يغفر له حتى نهاه الله عن ذلك . ففي هذا أعظم البيان وأوضح البرهان على أنه ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولانفعاً ، ولا عطاءً ولا منعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وأن الأمر كله بيد الله فهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويعذب من

يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضر عن ما يشاء، ويصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. وهو الذي من جوده الدنيا والآخرة وهو بكل شيءٍ عليم. ولو كان عنده ﷺ من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب شيء لكان أحق الناس به وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره وأحاطه من بلوغ ثمان سنين، وإلى ما بعد النبوة بثمان سنين أو أكثر بل قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فإذا كان لا يهدي من أحب مع حرصه على هدايته صح أنه ليس له من الأمر شيء ومع ذلك أيضاً ليس يعلم من يصلح للهداية، فإذا كان سيد البشر ﷺ وهو أكرم الخلق على الله، فكيف بغيره؟! فبهذا يقطع الإنسان العلائق عن كل الخلائق، ويتعلق بالواحد الخالق الرازق الذي له الحكمة البالغة والحجة الدامغة وله الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

والهــداية نوعــان :

(١) **هداية توفيق وإلهام** وهو خلق الهدى في القلب وإيثاره وذلك لله وحده ، وهو القادر عليه كقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة :٢٧٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى ٥٢-٥٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[النحل:٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف :١٠٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة : ٤١] ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[آل عمران :١٢٨] .

(٢) **هداية دلالة وإرشاد وبيان** وهي عامة للنبي ﷺ والأنبياء والمرسلين ولغيرهم من المؤمنين فهو المبين عن الله - عزَّ وجلَّ - والدال على دينه وشرعه ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد : ٧] ، وقوله تعالى:

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص ٥٦]، قال – رحمه الله – يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يامحمد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص ٥٦]، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، وأختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُوجَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص ٥٦] [1] .

ورواه مسلم والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ» فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي بِهَا قُرَيْشٌ أَنَّ مَا يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ الْجَزَعُ، لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] [2]

وقال الترمذي حسن غريب ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة فذكره

(1) البخاري (١٣٦٠)، مسلم (٢٤).

(2) مسلم (٢٥)، الترمذي (٣١٨٨).

بنحوه [١] . وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد والشعبي وقتاده: إنها نزلت في أبي طالب . انتهى [٢] .

يقول العلامة صديق حسن خان – رحمه الله – في هذه القصة ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه . فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضل خلقه ، من هداية القلوب ، وتفريج الكروب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ، والخلاص من النار ، ونحو ذلك شيء ، لكان أحق الناس بذلك ، وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه فسبحانه من بهرت حكمته العقول ، وأرشد العباد إلى مايدلهم على معرفته وتوحيده ، وإخلاص العمل له وتجريده قال – رحمه الله – وفي الحديث دليل على تحريم الإستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ، لأنه إذا حرم الإستغفار لهم ، فموالاتهم ومحبتهم أولى [٣] .

(1) مسند الإمام أحمد – رحمه الله – (٩٦١٦) .

(2) عمدة التفسير (٢/ ٧٧٧) .

(3) الدين الخالص للعلامة صديق حسن خان – رحمه الله – (٢/ ٢٢٧) .

[١٨] بَــابُ

مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِـمْ دِينَهُـمْ هُوَ الغُلُـوُّ فِـي الصَّالِحِينَ

أراد المصنفُ – رحمه الله تعالى – : بيان مايؤول إليه الغلو في الصالحين ، من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص ، شهادة أن لا إله إلا الله . وأن هذا الغلو يكون بالقول والإعتقاد فيهم وضابط الغلو تعدي ما أمر الله به ، وهو الطُغيان الذي نهى الله عنه ، ولما ذكر بعض ما يفعله عباد القبور مع الأموات من الشرك ، أراد أن يبين السبب في ذلك ليحذروا الغلو مطلقاً ، لا سيما في الصالحين ، فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقُرب الشرك بالصالحين من النفوس ، فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم . فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً ونوعاً من أنواع العبادة كالمحبة والخضوع والذل والدعاء والاستعانة والرجاء والخوف والرغبة والرهبة وغير ذلك من أنواع العبادة التي ذكر الله في كتابه العزيز وبينها النبي ﷺ في سنته أمراً وترغيباً للعباد أن يعبدوا بها ربهم وحده لا شريك له وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وكل نوع من أنواع العبادة لايستحق أن يقصد به إلا الله وحده لا شريك له ، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك وجعل لله نداً ، وقد عمَّت البلوى بهذا

الشرك الأكبر بأرباب القبور والأضرحة والأشجار والأحجار واتخذوا ذلك ديناً ، زعموا أن الله تعالى يُحب ذلك ويرضاه؟!! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣] .

فإن المخلوق له منزلة لا يتعدَّاها . فإن جاوز النَّاس فيها حدَّها ، فقد غلوا فيه . وإنَّما حدثت عبادة الأصنام بسبب الغلو في المخلوق وإنزاله فوق منزلته ، حتى جُعِل فيه حظٌّ من الإلهية وشبهوا الله بخلقه ونسبوا له الصاحبة والولد حتى كادت السماوات أن يتفطرن من قولهم وتنشق الأرض وتخِرُّ الجبال هدًّا قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ

جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم :٨٨-٩٥] . وجعلوا مع الله شركاء ومصرفين للكون ومدبرين له وجعلوا للكون أقطاب وأوتاد وأنداد؟!!

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل:٥٩- ٦٤] ، وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣] .

ورسولنا ﷺ هو سيِّد ولد آدم ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، وأوَّل شافعٍ وأوَّل مشفع قد حذَّرنا من الغلو فيه حتى قال ﷺ

(لاَ تُطْرُونِـي [١] كَمَـا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَـا أَنَا عَبْـدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُـهُ) [٢].

وعَنْ مُطَرِّفِ بن عَبْدِ اللَّهِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبِـي: (انْطَلَقْتُ فِي وفْدِ بَنِي عَامِرٍ إلى النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ فقلْنا لَهُ: أنتَ سَيِّدُنا فقَالَ: السيِّدُ اللَّـهُ تباركَ وتعالى قُلْنا: وأفضلُنا وأَعْظَمُنا طَوْلًا. قَالَ: قولوا بقولِكُمْ أوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ وفي روايةٍ: ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أنا محمدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ورسولُـهُ، ما أُحِبُّ أنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي التي أَنْزَلَنِي اللَّهُ -عزَّ وجلَّ) [٣].

فإذا كان هذا النهي في حقه ﷺ فغيره من باب أولى وقد بين الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه العزيز أنَّ قوماً من النَّاس وقعوا في الشرك بالله -عزَّ وجلَّ- بسبب الغلو في الأولياء والصالحين حتى عبدوهم وجعلوهم آلهة مع الله قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. وقد ثبت في صحيح البخاري وكتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس وغيره من

(1) الإطراء: المدح والزيادة في الثناء.

(2) البخاري (٣٤٤٥).

(3) رواه أحمد (٤/ ٢٤)، وأبو داود (٤٨٠٦) وصححه الإمام الألباني -رحمه الله- في (مشكاة المصابيح) (٤٩٠٠).

السلف ، أن هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا ، عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد ، فعبدوهم وأن هذه الأصنام بِعينها صارت إلى قبائل العرب ذكرها ابن عباس – رضي الله عنهما – قبيلةً قبيلة ، فقال – رضي الله عنهما – : ((صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجوف عند صبا . وأما يعوق فكانت لهمدان . وأما نسراً فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت))[1] .

---

(1) البخاري (٤٩٢٠) .

[١٩] بَــابُ
مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!

أي باب ذكرما ورد في النصوص من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، وأراد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة أن يبين أنه إذا كانت عبادة الله عند القبور منهياً عنها ومحرمة فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهي والوعيد واللعن فكيف بعبادة أربابها من دون الله فإن ذلك شرك أكبر ، وعبادة الله عندها وسيلة إلى عبادتها وكل ما يؤدي إلى حرام فهو محرم ، فإن الوسائل لها حكم الغايات، فوسائل الشرك محرمة، لأنها تؤدي إليه، ولما رأى المصنف رحمه الله تهافت الناس على عبادة القبور، نوَّع التحذير من الإفتتان بالقبور، وأخرجه في أبواب مختلفة، ليكون أوقع في القلوب، وأحسن في التعليم، وأعظم في الترهيب، وأبلغ في التحذير ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم: وصف ﷺ أن الذين كانوا قبلنا كانوا يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد وعقب هذا الوصف بالأمر بحرف الفاء أن لا يتخذوا القبور مساجد وقال إنه ﷺ ينهانا عن ذلك ، ففيه دلالة على أن اتخاذ من قبلنا سبب لنهينا، إما مظهر للنهي، وإما موجب للنهي، وذلك يقتضي أن أعمالهم دلالة وعلامة على أن الله ينهانا عنها، أوأنها علة مقتضية للنهي، وعلى التقديرين: يعلم أن

مخالفتهم أمر مطلوب للشارع في الجملة، والنهي عن هذا العمل بلعنة اليهود والنصارى مستفيض عنه ﷺ، ففي الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: ((قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) [1]. وفي لفظٍ لمسلم: ((لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) [2].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ وابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- طَفِقَ يَطرحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ) (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) [3].

وفي الصحيحين أيضاً عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [4].

(1) البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠).
(2) مسلم(٥٣١).
(3) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(4) البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٥٢٨).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**) رواه الأربعة ، وقال الترمذي حديث حسن، وفي بعض نسخه صحيح، فهذا التحذير منه واللعن عن مشابهة أهل الكتاب في بناء المسجد على قبر الرجل الصالح صريح في النهي عن المشابهة في هذا، ودليل على الحذر من جنس أعمالهم، حيث لا يؤمن في سائر أعمالهم أن تكون من هذا الجنس، ثم من المعلوم ما قد ابتلي به كثير من هذه الأمة ، من بناء المساجد على القبور وإتخاذ القبور مساجد بلا بناء، وكلا الأمرين محرم ملعون فاعله بالمستفيض من السُّنة، وليس هذا موضع إستقصاء ما في ذلك من سائر الأحاديث والآثار ، إذ الغرض القاعدة الكلية، وإن كان تحريم ذلك ذكره غير واحد من علماء الطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين يبالغون في المنع مما يجر إلى مثل هذا[1] .

وقد ذكر العلامة عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – في فتح المجيد نقلاً عن العلامة ابن القيم – رحمه الله – قوله وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِمَ عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أنَّ هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – (١/ ٣٣٢-٣٣٥) .

صيغة (لا تفعلوا) وصيغة إني أنهاكم عن ذلك ليس لأجل النجاسة، بل هي لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربَّه ومولاه، وقلَّ نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله، فإنَّ هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكاباً لنهيه، وغرّهم الشيطان، بأنَّ هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلَّما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله من هذا الباب دخل الشيطان على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسراً، ودخل على عُبَّاد الأصنام، منذ كانوا إلى يوم القيامة فجمع المشركون بين الغلو فيهم، والطعن في طريقتهم فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم"[1] .

ويقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني – رحمه الله – في تطهير الإعتقاد وكذلك تسمية القبر مشهداً ، ومن يعتقدون فيه ولياً لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام ، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم على الله

(1) فتح المجيد للعلامة عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – (ص ٢١٢).

وعليك ، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها وكل قوم لهم رجل ينادونهم، فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون: يازيلعي، ياابن العجيل وأهل مكة والطائف ياابن العباس ، وأهل مصر يارفاعي ، يابدوي، والسادة البكرية وأهل الجبال ياأباطير ، وأهل اليمن ياابن علوان ، وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النجدية :

أعادوا بها معنى (سواع) ومثله
(يغوث) و (ود) بئس ذلك من ودِّ

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرةٍ
أُهِلَّت لغير الله جهلاً على عمد

وكم طائف حول القبور مُقبلاً
ويلتمس الأركان منهن بالأيدي[1]

---

(1) تطهير الإعتقاد للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني – رحمه الله – .

وقال في موضع آخر فإن قلت : هذا أمر عم البلاد، واجتمعت عليه سكان الأغوار والأنجاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً ويمناً وشاماً وجنوباً وعدناً بحيث لا تجد بلدة من بلاد الإسلام إلا وفيها قبور ومشاهد وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها، وينذرون لها، ويهتفون بأسمائها، ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبور، ويسرجونها ويلقون عليها الورود والرياحين ، يلبسونها الثياب، ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها، وما في معناها من التعظيم والخضوع والخشوع والتذلل والافتقار إليها ، بل هذه مساجد المسلمين ، غالبها لا يخلو عن قبر أو قريب منه، أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة ، يصنعون فيه ما ذكر، أو بعض ما ذكر ، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة، ويسكت عليه علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا قلت: إن أردت الإنصاف ، وتركت متابعة الأسلاف وعرفت بأن الحق ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل، فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الأباء بلا دليل ، ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دني ومثيل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون له ويعظمونه ، ويرحلون به إلى محل قبره، ويلطخونه بترابه، ويجعلونه طائفاً على قبره ، فينشأ وقد

وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير، بل ترى من يتسم بالعلم، ويدعي الفضل، وينتصب للقضاء والفتيا والتدريس أو الولاية أو المعرفة، أو الإمارة والحكومة، معظماً لما يعظمونه مكرماً لما يكرمونه، قابضاً للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن العامة أن هذا دين الإسلام وأنه رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسُّنة والأثر أن سكوت العالِم أو العالم على واقع منكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر)[١].

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني – رحمه الله –: (اعلم أنه اتفق الناس سابقهم ولاحقهم، وأولهم وآخرهم، من لدن الصحابة – رضي الله عنهم – إلى هذا الوقت: أنَّ رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها، واشتدَّ وعيد رسول الله ﷺ لفاعلها)[٢].

(1) تطهير الإعتقاد للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني – رحمه الله –.

(2) شرح الصدور بتحريم رفع القبور للعلامة الشوكاني – رحمه الله – (ص ١٧).

[٢٠] بَــابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُـبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُـعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّـهِ

الغلو هو مجاوزة الحد في التعظيم بالقول والفعل والإعتقاد، وأراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة التحذير من الغلو في قبور الصالحين لأن الغلو فيها يؤدي إلى عبادتها وأنها إذا عُبدت سُميت أوثاناً ولو كانت قبور صالحين وكذلك التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها أوثاناً، **والأوثان**: جمع وثن وهو كل ما نُصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، **والصنم**: تمثال مُمَثَّل، فيكون الوثن أعم.

والذي يفعل عند القبور **نوعان: مشروع وممنوع فالمشروع** ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شدِّ الرحال إليها فيستحب له زيارة القبور لما فيها من العظة والعبرة فقد صح عنه ﷺ أنه قال: (**فزُورُوا القُبُورَ؛ فإنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**)[1]، وفي رواية (**زُورُوا القُبُورَ فإنَّهَا تُذَكِّرُكم الآخِرَةَ**)[2]، فيزورها للذكرى، والعبرة، والدعاء للموتى، والترحم عليهم وهذه هي السُّنة من دون شدِّ الرحل وقد فعلها النبي ﷺ وأصحابه – رضي الله عنهم –، فإذا زار

(1) مسلم (٩٧٦).

(2) النسائي (٢٠٣٤)، ابن ماجه (١٥٧٢).

المسلم قبور المسلمين في بلده ودعا لهم واستغفر لهم كان هذا قُربة وطاعة، وكان النبي ﷺ يُعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: (**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، والْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا والْمُستأخِرِينَ أَسْأَلُ اللَّهَ لنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ**)[1]، هكذا علمهم النبي ﷺ وكان يزور القبور بنفسه ويدعو للموتى ويستغفر لهم ويقول: (**السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وأَتَاكُمْ ما تُوعَدُونَ، غَداً مُؤَجَّلُونَ، وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**)[2] وفي لفظٍ يقول: (**أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ**)، فعلى المؤمن أن يفعل مثل ما فعل النبي ﷺ إذا زار القبور، ومثل ماعلم أصحابه، يسلم عليهم ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة ويستغفر لهم، ويقول: (**أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ**) هذه هي الزيارة الشرعية، وكذلك إذا زار المسجد النبوي ثم زار قبر النبي ﷺ يسلم عليه، ويقول صلى الله وسلم عليك وعلى آلك وأصحابك جزاك الله عن أمتك خيراً، وهكذا إذا زار قبور الصالحين في أي مكان يدعو لهم بالمغفرة والرحمة ويستغفر لهم ويسأل الله لهم العافية فيكون محسناً إليهم بالدعاء

(1) مسلم (٩٧٥).

(2) مسلم (٩٧٤).

لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة ومحسناً إلى نفسه بإتباع السُّنة وتذكر الآخرة والإعتبار بها والإتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان :

أحدهما : محرم ووسيلة للشرك: كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها ، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة .

والنوع الثاني : شرك أكبر : كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأُخروية منهم فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عُبَّاد الأصنام والأوثان مع أصنامهم وأوثانهم ، ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلى الله فإن المشركين يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم من زعم ذلك فقد كذَّب ما جاء به الكتاب والسُّنة، وأجمعت عليه الأُمة: من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين ، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين، وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به

الفرقان في هذا الباب المهم ، الذي حصل به من الإضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

وقد سأل النبي ﷺ ربه بأن لا يجعل قبره وثناً يعبد من دون الله وإنما سأل النبي ﷺ ذلك لأنَّ من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم فسأل النبي ﷺ أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، لأنَّ دعوته كلها دعوة للتوحيد ومحاربة للشرك وهذا حماية منه ﷺ وصيانة للتوحيد والتحذير من كل طريق أو عمل قد يؤدي للوقوع في الشرك فصلوات ربي وتسليماته عليه فقد بين للأُمة المحجة وحذرها من سُبل الغواية والضلال بأتم بيان وأفصح لسان بقوله وفعله وتحذيراته وتنبيهاته فإذا كان هذا التحذير من عدم الغلو فيه حياً وميتاً وعدم جعل قبره عيداً ووثناً وهو سيد الخلق وسيد الأولين والآخرين بأبي وأمي ﷺ فكيف بالغلو فيمن هو دونه !!! وإذا كان هذا التحذير بعدم جعل قبره عيداً فكيف بقبور غيره التي جُعلت أعياداً وأوثاناً وموالد يحتفل بها سنوياً وشهرياً وأسبوعياً ويومياً وتذبح عندها وتقرب عندها النذور ويُشدُّ لها الرحال ويُنادى ويستغاث بأصحابها من مكانٍ قريبٍ ومن مكانٍ بعيدٍ!!

[٢١] بَـــابُ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ .

أراد المصنف – رحمه الله – من هذه الترجمة بيان أنَّ النَّبِيَّ ﷺ حمى جانب التوحيد من شرك يبطله أو بدعة تقدح فيه ، أو معصية تنقصه ، حرصاً على أمته وخوفاً عليهم أن يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الأمم فلم يترك طريقاً ولا وسيلةً تؤدي إلى الشرك إلا نهى عنها وحذرهم منها ومن ذلك تعظيم القبور والغلو في أصحابها وبناء المساجد عليها وإسراجها ، والعكوف عليها وتحرِّي الصلاة والدعاء والصدقة عندها ، لا سيما قبره الشريف صلوات الله وسلامه عليه .

والجناب : هو الجانب، ومع حمياته لجناب التوحيد اجتهد في سد كل طريق يوصل أمته إلى الشرك وحذر وأنذر ، وأبدى وأعاد ، وخصص وعمم وقطع الوسائل والذرائع المفضية إليه ونهى أن يُجعل قبره عيداً أو وثناً يعبد وأمرنا بأن لا نجعل بيوتنا قبوراً أي لا نجعلها كالقبور في خلوها عن الذكر والعبادة بل نجعل فيها نصيباً من الذكر والدعاء وفي قوله ﷺ : (**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً**) ففيه من الفوائد أنَّ القبور ليست أماكن للعبادة ولا للتقربات وإلا لما شبه البيوت التي لا يجعل فيها حظاً من العبادة لما شبهها بالقبور ، فصلوات ربي

وسلامه عليه بين البيان المبين وحَمى حِمى التوحيد من كل ما ينقصه وقد بين الإمام ابن القيم – رحمه الله – في (النونية) هذا الأمر فقال :

وَاللَّـهِ لَـمْ نَقْـصِدْ سِـوَى التَّجْرِيـدِ للتَّـ
ـوْحِيـــدِ ذَاكَ وَصِيَّــــةُ الرَّحْمَــــنِ

وَرِضَى رَسُـــولِ اللَّـــهِ مِنَّـــا لاَ غُلُـــوْ
وَ الــشِّرْكِ أَصْــلِ عِبَــادَةِ الأَوْثَــانِ

وَاللَّـــهِ لَــوْ يَرْضَــى الــرَّسُولُ دُعَاءَنَــا
إِيَّـــاهُ بَادَرْنَـــا إِلَـــى الإِذْعَـــانِ

وَاللَّـهِ لَـوْ يَرْضَـى الـرَّسُولُ سُجُـودَنَـا
كُنَّـــا نَخِـــرُّ لَـــهُ عَـــلَى الأَذْقَـــانِ

وَاللَّـــهِ مَـــا يُرْضِيـــهِ مِنَّـــا غَيْـــرُ
إِخْـــلاَصٍ وَتَحْكِيـــمِ لِـــذَا القُـــرْآنِ

وَلَقَــدْ نَهَــى ذَا الخَلْــقَ عَـنْ إِطْرَائِـهِ
فِعْـــلَ النَّــصَارَى عَابِــدِي الــصُّلْبَانِ

وَلَقَـــدْ نَهَـــانَا أَنْ نُـــصَيِّرَ قَبْـــرَهُ
عِيـــداً حِـــذَارَ الـــشِّرْكِ بِالرَّحْـــمنِ

وَدَعَا بِأَنْ لَا يُجْعَلَ القَبْرُ الَّذِي
قَدْ ضَمَّهُ وَثَناً مِنْ الأَوْثَانِ

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ
وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ
فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الوَفَاةِ مُصَرِّحاً
بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا القُبُورَ مَسَاجِداً
وَهُمُ اليَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

وَاللَّهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ
لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالحِيطَانِ

قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ
ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدَهُ التْـ
ـتَجْرِيدَ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

يقول العلامة محمد خليل هراس - رحمه الله - في شرحه للكافية الشافية يقول : ونحن حين نهينا الناس عن الغلو في نبيهم ﷺ وأمرناهم أن يعرفوا له حقه في الطاعة والاتباع والتعزير والتوقير دون أن يجعلوا له شيئاً من حقوق الإلهية لم نقصد والله سوى تخليص التوحيد من كل شوائب الوثنية ، وتلك هي وصية الله لنا حيث قال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، وذلك هو ما يرضاه منا رسول الله ﷺ الذي كان أعظم داع إلى التوحيد والقيام بحقه في الإخلاص والتجريد ، وأما هذا الغلو في تعظيم المخلوقين والعكوف على أضرحة الموتى المقبورين الذي كان أصل الشرك وعبادة الأوثان في جميع الأديان ، فذلك ما لا يرضيه ، فلو كان الرسول ﷺ يرضى أن ندعوه مع الله - عزَّ وجلَّ - لم يكن منا إلا المبادرة إلى الإذعان والموافقة ، ولو كان يرضى منا أن نسجد له لوقعنا على الأذقان سجداً بلا مهله ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يرضيه منا إلا أن يجرد التوحيد لله فنجعل عبادتنا كلها له وحده ، محبةً وتعظيماً وخوفاً ورجاءً وذلاً واستكانةً وسُؤالاً ودعاءً ، وتوكلاً واستعانةً وتوبةً وإنابةً ورغبةً ورهبةً وصلاةً وسجوداً ، وذبحاً ونذراً وحجاً واعتماراً ، إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي لا تنبغي إلا له وحده ، ولا يرضيه منا كذلك إلا أن نحكم القرآن

العظيم في كل شؤوننا، وأن نرد إليه كل ما تنازعنا فيه من أحكام ديننا، ولقد نهى أمته أن تغلو فيه كما غلت النصارى في نبيهم فقال: (**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**)[1]، ونهاهم كذلك أن يتخذوا من قبره عيداً يحجون إليه ويجتمعون عنده فقال فيما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – (**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**) رواه أبو داود[2]، ودعا اللَّه – عزَّ وجلَّ – أن لا يجعل قبره الذي ضم جسده الشريف وثناً يسجد له ويطاف به ويصلى عنده فقال: (**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**) رواه مالك في الموطأ[3]، فأجاب الله – عزَّ وجلَّ – دعاء نبيه ﷺ فأحاط قبره بثلاثة جدران حتى لا يكون بارزاً في المسجد، فأصبحت أنحاء القبر ببركة دعائه في منعة وصيانة أن يرتكب عندها شيء من أعمال الوثنية، ولقد صرح صلوات الله وسلامه عليه عند موته بلعن من اتخذوا قبور

(1) البخاري (٣٤٤٥).

(2) رواه ابو داود (٢٠٤٢)، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في صحيح سنن أبي داود.

(3) الموطأ (٨٥).

أنبيائهم مساجد من اليهود والنصارى ، روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير **عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) قَالَتْ : (فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً)**[1] ، فلما مات صلوات الله عليه وسلامه بنى أصحابه على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويقع المحذور ، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر ، وكان قصدهم من تسنيم حجرته وبناء الحيطان عليها أن لا يتمكن أحد من الصلاة عنده ، وذلك موافقة منهم لرسول الله ﷺ الذي ما قصد بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد إلا تجريد التوحيد لله – عزَّ وجلَّ – .

يقول القرطبي صاحب التفسير – رحمه الله – (ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدوا المدخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ﷺ ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا

(1) البخاري (١٣٩٠) ، ومسلم (٥٣١) .

جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره[1] .

(1) شرح القصيدة النونية للعلامة محمد خليل هراس – رحمه الله – (٢/ ٢١٤ – ٢١٦) .

[٢٢] بَــابُ

مَا جَاءَ أَنَّ بَـعْـضَ هَذِهِ الْأُمَّـةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَـانَ

أراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة الرد على عباد القبور ، الذين يفعلون الشرك ويقولون إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى، **والأوثان** جمع وثن والوثن يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل – عليه السلام – ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ [العنكبوت:١٧] ، مع قوله : ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١]، وقوله : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] ، وقول النبي ﷺ : (**اللَّـهُمَّ لَا تَـجْعَلْ قَـبْـرِي وَثَـنـاً يُعْـبَـدُ**)[1] ، وقال ﷺ لعدي بن حاتم – رضي الله عنه – وكان في عنقه صليب (**اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**) ، فعُلم بهذا أن **الوثن** يُطلق على ما عُبد من دون الله من

(١) الموطأ (٨٥).

القبور والمشاهد والأشجار والأصنام وغيرها فمن دعا غير الله وعبده فقد اتخذه وثناً ، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة وفيه التصريح بوقوع عبادة الأوثان في هذه الأمة فقد جاء في الحديث (**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ**) وفي رواية أبي داود (**حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ**) ، (**وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**)[1] ، قال في النهاية الفئام بكسر الفاء مهموز الجماعات الكثيرة[2] ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً : (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتِ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ**)[3] . وفي صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – مرفوعاً : (**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى**)[4] ، ومن مظاهر الشرك التي وقعت في الأُمة عبادة القبور ببناء المشاهد عليها وقصدها للدعاء والرغبة وطلب الحاجات والتعظيم والتقبيل والتبرك والذبح لها وعندها وتقديم النذور وإقامة الأعياد والحفلات لها في كل عام ، حتى فُتن بها الجهال، فأصبحوا لا يدعون في كروباتهم سواها ، ولا يقصدون في حوائجهم غيرها ، وإنَّ

(1) أبو داود (٤٢٥٢) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) ، والإمام أحمد (٥/ ٢٧٨) ، وصححه الألباني – رحمه الله – .

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر لإبن الأثير – رحمه الله – (٣/ ٣٦٤) .

(3) البخاري (٧١١٦) ، ومسلم (٢٩٠٦) .

(4) مسلم (٢٩٠٧) .

من الأسباب التي أدت إلى ظهور الشرك في الأُمة وجود الأئمة المُضلين الذين يُزينون للناس عبادة القبور والأولياء والصالحين ولقد حذر النبي ﷺ منهم وأخبر بأنه أخوف ما يخاف على أُمته من هؤلاء الأئمة المُضلين يقول الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله – رحمه الله – في تيسير العزيز الحميد في قوله ﷺ (**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**)، أي الأمراء والعلماء والعباد الذين يقتدي بهم الناس ، ويحكمون فيهم بغير علم فيضِلون ويُضِلون ، فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم، كما قال تعالى عن أهل النار : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف:٣٨] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٧] وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٣ - ١٠٤]، ولشدة الضرورة إلى اتباع أئمة الهدى ومعرفتهم والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك صراط أئمة الهدى وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به ، ولا الضالين الذين يعملون على غير شرع من الله، بل بما تهوى أنفسهم، فصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدى

والعمل به ، وقد وصف النبي ﷺ أئمة الهدى لـمَّا ذكر التفرق من بعده، بأنهم الذين كانوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما رواه أبو داود وغيره ، فمن كان على ما كان عليه النبي ﷺ فهو من الأئمة المهديين ، ومن خالفهم فهو من الضالين، كالذي يقول لأصحابه من كانت له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب أو نحو هذا كالذي يدعي أنه يخلص أصحابه ومريديه من النار ، وأنه يحفظ الناس ويكلأهم إذا اعتقدوه ويضر بهم إذا كفروا به وحاربوه ، ويدعي أن ذلك من كراماته ، وكالذي يمشي في الأسواق عرياناً ولا يشهد بصلاة ولا ذكر الله ولا علماً بل يعيب علماء الشرع ، ويغمزهم ويسميهم أهل علم الظاهر ويدعي أنه صاحب علم الباطن ، وربما يدعي أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى – عليه السلام – ، ونحو ذلك من الكفر والهذيان ، وكالذي يدعي أن العبد يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف ، أو يدعي أن الأولياء يدعون ويُستغاث بهم في حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم ، أو يُجوِّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، وايقادها بالسرج والشموع ، وكسوتها بالحرير والديباج والفرش النفيسة

أو يدعي أن من عمل بالقرآن والسُّنة في أصول الدين وفروعه فقد ضل وأضل وابتدع ، أو أن ظواهر القرآن في آيات الصفات تشبيه وتمثيل ، وأن الهدى لا يؤخذ منه في هذا الباب ولا في غيره ، وإنَّما يؤخذ من الشبهات الوهمية التي يسميها بزعمه براهين عقلية ، فكل هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النبي ﷺ على أُمته وحذر منهم، والضابط في الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران :٣١ - ٣٢] ، فافهم عن ربك وكن على بصيرة ، ولا يغرك جلالة شخص أو عظمته في النفوس فربك أعظم واتباعك لكلامه وكلام رسوله ﷺ هو الفرض ، والعصمة منتفية عن غير الرسول ، وربك أدرى بما في الضمائر ، فرب من تعتقده إمام هدى ليس كذلك ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية :١٨] ، فكل من أتى بشيء يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله ، فهو من أهل الأهواء الذين لا يعلمون ، ومن لم يستجب للرسول ﷺ فإنَّما يتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص :٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ

أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣] ، (وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ : قَالَ لِي عُمَرُ : هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ ؟ قُلْتُ : لَا قَالَ : يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ) رواه الدارمي[1] ، (وقال يزيد بن عميرة : كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس : الله حكم قسط هلك المرتابون ... الحديث ، وفيه : واحذروا زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق ، قلت لمعاذ : ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال لي : اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال : ما هذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنَّه لعله أن يراجع الحق ، وتلق الحق إذا سمعته فإنَّ على الحق نوراً) رواه أبو داود وغيره[2] .

وما أحسن ما قال ابن المبارك – رحمه الله –

وهل أفسد الدين إلا الملوك

وأحبار سوء ورهبانها[3]

---

(1) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤) .

(2) رواه أبو داود (٤٦١١) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في صحيح سنن أبي داود.

(3) تيسير العزيز الحميد للعلامة سليمان بن عبد الله – رحمه الله – ص (٢٨٢ - ٢٨٣) .

[٢٣] بَـــابُ
مَـــا جَـــاءَ فِـــي السِّحْـــرِ

السِّحْرُ في اللغة: ما خفي ولطف سبَبُه ومنه سُمي السَّحر لآخر الليل لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية.

وفي الإصطلاح: قال ابن قُدامة المقدسي – رحمه الله – هو عُقَدٌ وَرُقى وكلامٌ يَتكلَّمُ به أو يكتبه، أو يعملُ شيئاً يؤثِّرُ في بدنِ المسحورِ أو قلبه أو عقله من غيرِ مباشرةٍ له، وله حقيقةٌ فمنهُ ما يقتلُ، وما يُمرِضُ، وما يأخُذُ الرجُلَ عن امرأتِهِ فيمنعه وَطْأَها، ومنه ما يفرِّقُ بين المرء وزوجه، وما يُبغِّضُ أحدهما إلى الآخرِ أو يُحَبِّبُ بين اثنين) انتهى[1].

ولما كان السحر لا يتأتى بدون الشرك ذكره المصنف – رحمه الله تعالى – تحذيراً منه وبيان عاقبته، يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – في كلامه عن شر الساحر بأن الساحر يستعين بالشيطان ويعبده، وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه، إما بذبح باسمه أو بذبح يقصد به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع

(1) المغني لإبن قدامة (١٠/ ١٠٤).

الشرك والفسوق ، والساحر وإن لم يسم هذه عبادة للشيطان فهي عبادة له ، وإن سماه بما سماه به ، فإنَّ الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه ، فمن سجد لمخلوق وقال ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالفم ، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليسمه بما شاء ، وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يحب ، فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ، بل يسميه استخداماً ، وصدق هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة فإن الشيطان لا يخضع ولا يعبده كما يفعل هو به ، والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان وإنما سماه استخداماً قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ : ٤٠ - ٤١] ، فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ، ولبئس المولى ولبئس العشير ، انتهى[1] .

(١) تفسير المعوذتين للإمام ابن القيم – رحمه الله – ص (٦٣) .

وقد ذكر الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – أنَّ السحر ينقسم إلى قسمين :

الأول : عُقد ورُقى أي : قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور لكن قد قال الله تعالى : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

الثاني : أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله ، فتجده ينصرف ويميل ، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء والصرف بالعكس من ذلك .

فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه وفي عقله فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله .

فالسحر قسمان :

أ – **شرك** وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور .

ب – **عدوان** وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة وهي :

هل يكفر الساحر أو لا يكفر ؟

اختلف في هذا أهل العلم فمنهم من قال : إنه يكفر ومنهم من قال : إنه لا يكفر ، ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة ، فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً لقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها ، فلا يكفر ولكن يعتبر عاصياً معتدياً .

وأما قتل الساحر ، فإن كان سحره كفراً قُتل قتل رده ، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته وهو الصحيح ، وإن كان سحره دون الكفر ، قُتل قتل الصائل ، أي قُتل لدفع أذاه وفساده في الأرض ، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الحاكم ، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال : فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك ، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله – عزَّ وجلَّ – وإنما يخيل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، انتهى[1].

---

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (١/ ٣٩٧ – ٣٩٨) .

حكم السِّحر :

السحر كفر وهو محرم بالكتاب والسُّنة والإجماع وهو من السبع الموبقات التي أخبر عنها النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، فدلت الآية على أن السحر كفر وأن السحرة يُفرِّقون بين المرء وزوجه كما دلت على أنَّ السحر ليس بمؤثِّر بذاته نفعاً ولا ضرًّا وإنما يؤثِّر بإذن الله الكوني القدري، لأن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي خلق الخير والشر، كما دلت الآية الكريمة على أن الذين يتعلَّمون السحر إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، وأنه ليس لهم عند الله من خلاق أي من حظ ونصيب وهذا وعيد عظيم يدل على شدة خسارتهم في الدنيا والآخرة ، وأنهم باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان .

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا : يَارَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،**

وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ)[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في (الفتاوى) أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله وقد ثبت قتل الساحر عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وحفصة بنت عمر ، وعبد الله بن عمر ، وجندب بن عبد الله وروى ذلك مرفوعاً عن النبي ﷺ[2] ، وقد قال ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة : ١٠٢ - ١٠٣] ، فبين سبحانه أن طلاب السحر يعلمون أن صاحبه ماله في الآخرة من خلاق : أي من نصيب ولكن يطلبون به الدنيا من الرئاسة والمال ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [البقرة : ١٠٣] ، لحصل لهم من ثواب الله في الدنيا والآخرة

(1) البخاري (٢٧٦٧) ، ومسلم (٨٩) .

(2) الترمذي (١٤٦٠) ، وقال والصحيح عن جندب موقوفاً والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم .

ما هو خير لهم مما يطلبونه ، ولهذا تجد الذين يدخلون في السحر ودعوة الكواكب وتسبيحاتها فيخاطبونها ويسجدون لها إنما مطلوب أحدهم المال والرئاسة ، فيكفر ويشرك بالله لأجل ما يتوهمه من حصول رئاسة ومال ، ولا يحصل له إلا ما يضره ولا ينفعه ، كما يدل عليه استقراء أحوال العالم)[1] .

علاج السحر :

الأول : الوقاية منه قبل وقوعه وذلك بالتحصن بالأذكار والأدعية المأثورة ، ومن ذلك قراءة آية الكرسي في الصباح والمساء وأدبار الصلوات المكتوبة وأيضاً قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين أدبار الصلوات المكتوبة كذلك وقراءة خواتيم سورة البقرة كل ليلة عند النوم وقول بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات عند الصباح وعند المساء وقول أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق والإكثار من ذكر الله – عزَّ وجلَّ – صباحاً ومساءً .

الثاني : العلاج من السحر بعد وقوعه فيكون باللجوء إلى الله – عزَّ وجلَّ – والتضرع إليه – سبحانه – بكشف الضر وإزالة البأس ثم

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – (١٥/ ٢١١) .

استخدام الرقية الشرعية وهي قراءة آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين والفاتحة والآيات التي وردت في السحر وغير ذلك من الآيات والأدعية والأذكار ، ولا يجوز الذهاب إلى السحرة والكهنة والمشعوذين لما ورد من الوعيد في ذلك .

[٢٤] بَــابُ
بَيَانِ شَــيْءٍ مِــنْ أَنْــوَاعِ السِّــحْرِ

لما ذكر المصنف - رحمه الله - ما جاء في السحر ذكر شيئاً من أنواع السحر لكثرة وقوعها، وخفائها على الناس، حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدر عنه خارق فهو ولي لله، وحتى آل الأمر إلى أن عُبد أربابها، وهذا العمل بعينه أحوال شيطانية، واستدراج من الشيطان لبني آدم إلى الشرك، ولا بد للمسلم أن يفرق بين ولي الله وبين عدو الله، من ساحر وكاهن ونحوهما، ممن قد يجري على يديه شيء من الخوارق، وأولياء الله هم أحبابه المتقربون إليه بالطاعات وترك المحرمات، وإن لم تجري على إيديهم خوارق، وإن جرت فكرامة من الله، وليست وحدها دليلاً على الولاية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (وكثير من الناس من يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يُقبل منه كل ما يقوله، ويُسلم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسُّنة، فيوافق ذلك الشخص ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه، كان من أولياء الله المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتابعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين فتجُرُّهُ مخالفةُ

الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلالة ، وآخراً إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩]، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٥ - ١٦٧] ، وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة : ٣١] ، وفي المسند والترمذي وصححه عن عدي بن حاتم في تفسير هذه الآية ، لما سأل النبي ﷺ عنها فقال : ما عبدوهم ، فقال النَّبيُّ ﷺ : (**ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم إياهم**)[1] . ولهذا قيل في مثل هؤلاء : إنما حُرموا الوصول بتضييع الأصول ، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بالله ورسوله فلا بد

(١) الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الإمام الألباني -رحمه الله - في صحيح سنن الترمذي .

من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ ولا بد من الإيمان بأن محمد رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنّهم عربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم وأن لا طريق إلى الله عزّ وجلّ لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم إتباعه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٨٢) ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢]، قال ابن عباس – رضي الله عنهما -: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)، وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا (٦٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥]، وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي لله، فإنه بنى أمره على أنه ولي لله وأن ولي الله لا يخالف في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه

ماخالف الكتاب والسُّنة ، فكيف إذا لم يكن كذلك ؟! وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله ، أنه صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة ، مثل : أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها ، أو أن يمشي على الماء أحياناً ، أو يملأ إبريقاً من الهواء ، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحياناً من أعين الناس أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء ، فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سُرق لهم ، أو بحال غائب لهم أو مريض ، أو نحو ذلك من الأمور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء ، لم يُغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه ، وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليًّا لله ، فقد يكون عدوًّا لله ، فإنَّ هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه وليٌّ لله ، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي يدل عليها الكتاب والسُّنة ، ويعرفون بنور الإيمان والإقرار بحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة ، ومثال ذلك: أنَّ هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ، ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة بل يكون ملابساً للنجاسات ، معاشراً للكلاب ، يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لا يتطهر الطهارة

الشرعية ولا يتنظف ، وقد قال النبي ﷺ : (**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولاجنب**) [1] ، وقال عن هذه الأخلية: (**إنَّ هذه الحشوش محتضرة**) [2] ، أي: تحضرها الشياطين، وقال : (**من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين، فلا يقربن مسجدنا ، فإنَّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**)[3] ، وقال: (**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً**) [4] ، وقال : (**إنَّ الله نظيف يحب النظافة**) [5] ، وقال : (**خمس فواسق يقتلن في الحِلِّ والحرم : الحية ، والفأرة ، والغراب، والكلب العقور ، والحدأة**) وفي رواية ، (**الحية والعقرب**) [6] ، وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب[7] ، وقال : (**من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً ، نقص من عمله كل يوم قيراط**)[8]، وقال : (**لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب**)[9] ، وقال: (**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم ، فليغسله سبع مرات إحداهنَّ**

---

(1) أخرجه أبو داود (٢٢٧) ، وضعفه الإمام الألباني – رحمه الله – في ضعيف سنن أبي داود ، وقد صح الحديث بدون قوله : ولا جنب .

(2) أخرجه أبو داود (٦) ، وابن ماجه (٢٩٦) ، وصححه العلامة الألباني كما في صحيح سنن أبي داود .

(3) البخاري (٨٥٤) ، ومسلم (١٢٥٣) .

(4) مسلم (١٠١٥) .

(5) الترمذي في سننه (٢٧٩٩)، وضعفه الإمام الألباني في ضعيف سنن الترمذي .

(6) البخاري (١٨٢٩) ، ومسلم (١١٩٨) .

(7) البخاري (٣٣٢٣) ، ومسلم (٣٩٩٢) .

(8) البخاري (٣٣٢٥) ، ومسلم (١٥٧٦) .

(9) مسلم (٢١١٣) .

بالتراب)[1] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] ، فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي تحبها الشياطين ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق ، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي تحبها الشياطين، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية قبر الشيخ، ولا يخلص الدين لرب العالمين أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوي إلى المزابل أو المواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن ، قال ابن مسعود — رضي الله عنه — : (لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن ، فهو يبغض الله)[2] ، وقال عثمان بن عفان — رضي الله عنه — : (لو طهرت قلوبنا لما شبعت من

---

(1) البخاري (١٧٢) ، ومسلم (٢٧٩) .

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) بسند صحيح .

كلام الله – عزَّ وجلَّ –)[1] ، وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – : (الذكر ينبت الإيمان في القلب ، كما ينبت الماء البقل ، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل)[2] ، فإن كان الرجل خبير بحقائق الإيمان الباطنة فرّق بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية ، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد :٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال: (**اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله**)[3] قال الترمذي حديث حسن.

وقد تقدم أن الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه :

(مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ

---

(1) ابن المبارك في الزهد (١١٣٣) ، والإمام أحمد في الزهد (ص ١٥٩) ، وإسناده ضعيف ، والمعنى صحيح .

(2) البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٢٣) .

(3) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وضعفه العلامة الألباني – رحمه الله – كما في ضعيف سنن الترمذي ، والسلسلة الضعيفة (١٨٢١) .

عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1] .

وإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وحال أولياء الشيطان ، كما يُفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزائف، وكما يُفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديئ ، وكما يُفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان ، وكما أنه يجب الفرق بين النَّبِيِّ الصادق وبين المتنبيء الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم ، وبين مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطليحة الأسدي والحارث الدمشقي وباباه الرومي ، ونحوهم من الكذابين ، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين[2] انتهى .

وقد ذكر المصنف – رحمه الله – **أشياء من أنواع السحر مثل العيافة والطَّرق والاقتباس من النجوم** .

والمقصود بالعيافة : زجر الطير والحيوان ، والإستدلال بأصواتها وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم .

---

(1) البخاري (٦٥٠٢) .

(2) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ص (٧٧ - ٨٥) .

وأما الطرق : فهو الخط في الأرض ، وقال بعضهم الضرب بالحصى ويسمى علم الرمل حيث يستدلون بأشكال الرمل على أحوال المسألة حين السؤال .

والطيرة : التشاؤم ، وأصله أن العرب في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر ، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع ووجه كون العيافة والطرق والطيرة سحراً ، لما فيها من دعوى علم الغيب ، ومنازعة الله تعالى في ربوبيته ، فإن علم الغيب من صفات الربوبية التي استأثر الله تعالى بها دون من سواه ، إضافة إلى أن بعضهم يعتقد أن تلك الأشياء تنفع أو تضر بغير إذن الله تعالى .

وكذلك من أنواع السحر من اقتبس شعبة من النجوم، روى ابن أبي حاتم – رحمه الله تعالى – : **إنما جعل الله سبحانه هذه النجوم لثلاث خصالٍ ، جعلها زينةً للسماء ، وجعلها يُهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين** ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظَّه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به ، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانةً : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن وُلد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم وما علم هذا النجم وهذه الدابةُ

وهذا الطير بشيء من الغيب وقضى الله تعالى أنه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل : ٦٥] ، **ومن أنواعه العقدُ والنفثُ فيه قال تعالى:** ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق : ٤] .

يقول الشيخ العلامة حافظ الحكمي – رحمه الله – وقد أُطلق السحر على ما فيه التخييلُ في قلب الأعيان وإن لم يكن السحر الحقيقي كما في الصحيحين عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنَّ رسول الله ﷺ قال : (**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحرًا**)[1] ، يعني لتضمُّنه التخييل فيُخيل الباطل في صورة الحق وإنما عنى به البيان في المفاخرة والخصومات بالباطل ونحوها كما يدل عليه أصلُ القصة في التميميين اللذين تفاخراً عنده بأحسابهما وطعن أحدُهما في حسب الآخر ونسبه ، وكذلك **قال** ﷺ : (**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**) أو كما قال ، وهو في الصحيح[2] ، وأما البيانُ بالحق لنُصرة الحقِّ فهو فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وهو من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ وقد سمى ﷺ ما يعمل عملَ السحر سحراً ، وإن لم يكن سحراً ، **لقوله** ﷺ : (**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ**

(1) البخاري (٥١٤٦) ، ومسلم (٤٧) .

(2) البخاري (٧١٦٩) ، ومسلم (١٧١٣) .

مَا الْعَضْةُ ؟ " قَالَ : " هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)[1] ، والعضة في لغة قريش السحر، ويقولون للساحر عاضِةٌ ، فسمَّى النميمةَ سحراً لأنها تعمل عملَ السحرِ في التفرقة بين المرء وزوجه وغيرهما من المتحابين ، بل هي أعظمُ في الوشاية لأنها تُثير العداوةَ بين الأخوين ، وتسعِّر الحرب بين المتسالِمين كما هو معروفٌ مشاهدٌ لا يُنكر .

وقد جاء الوعيدُ للقتَّات في الآيات والأحاديث كثيراً جداً ، ومع هذا فالخداعُ للكفار للفتك بهم وإظهار المسلمين عليهم وكسرِ شوكتِهم وتفريقِ كلمتهم من أعظم الجهادِ وأنفعِه وأشدِّه نكايةً فيهم ، كما فعله نُعيمُ بنُ مسعودٍ الغطَفاني – رضي الله عنه – في تفريق كلمةِ الأحزابِ بإذن رسول الله ﷺ حتى فرَّق بين قريشٍ وبين يهودِ بني قُريظةَ ، ونقض الله بذاك ما أبرموه ، ولله الحمدُ والمِنّة[2] ، انتهى .

---

(1) مسلم (٢٦٠٦) .

(2) معارج القبول بشرح سلم الوصول للعلامة حافظ الحكمي – رحمه الله – (٢/٧٠٨ – ٧٠٩) .

[٢٥] بَـــابُ
مَا جَاءَ فِي الْكُـهَّـانِ وَنَـحْوِهِمْ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن الكهانة ونحوها لا تخلو من الشرك المنافي للتوحيد من جهتين :

١ – من جهة دعوى مشاركة الله – عزَّ وجلَّ – في علم الغيب الذي اختص به .

٢– ومن جهة التقرب إلى غير الله – عزَّ وجلَّ – كإستخدام الشياطين والاستعانة بهم .

فمن ادعى مشاركة الله في علم الغيب بكهانة أو عرافة أو غيرهم أو صدَّق من ادَّعى ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه وقد كذَّب الله ورسوله قال تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] ، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – في الفتح: **(الكاهن هو الذي يدَّعي أنه يعلم الغيب وهو لفظ يطلق على العرَّاف والرَّمَّال ، والذي يضرب بالحصى والمنجِّم)**[1] .

أما التنجيم فإنه نوعان :

الأول : مباح وهو ما يُعرف بعلم الحساب كمعرفة وقت الكسوف والخسوف والرصد وهبوب الرياح واتجاهاتها مع الاعتقاد الجازم أن كلَّ شيء يجري في هذا الكون بقضاء الله وقدره وعند الإخبار بشيء من ذلك يُقيِّد الكلام بمشيئة الله وبعبارة التوقع فهذا قال العلماء بجوازه لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب ويستند إلى أمور حسية وهي تكيُّف الجو، لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم ، فيكون صالحاً لأن يمطر أو لا يمطر ونظير ذلك إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب نقول يوشك أن ينزل المطر ، فهذه الأمور تدرك بالحس والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح ، كما قال السَّفَّاريني – رحمه الله –

وَكُلُّ مَعْلُومٍ بِحسٍّ وَحِجَى　　　فَنُكْرُهُ جَهْلٌ قَبِيحٌ فِي الهِجَا[2]

---

(1) فتح الباري للحافظ ابن حجر – رحمه الله – (١٠/٢١٦) .

(2) الدرة المضيئة للإمام السفاريني – رحمه الله – .

أما النوع الثاني : وهو المحرم والمنهي عنه وهو نوع من أنواع الشرك وهو الإستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فيدَّعي المنجِّم أنه من خلال النظر في النجوم يمكن أن يعرف ما سيقع في الأرض من نصر قومٍ أو هزيمة آخرين ، أو موت أو حياة ، أو قيام أو زوال ، أو خسارة لرجل وربح لآخر فهذا هو المراد بهذه المسألة وهو محرم وصاحبه يُعتبر كافراً كُفراً بواحاً إذا اعتقد أن للنجوم تأثيراً ذاتيًّا في الحوادث الأرضية، لأن الله – عزَّ وجلَّ – إنما خلق النجوم زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، لم يخلقها سبحانه للإستدلال بها على ما يجري على الأرض قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك : ٥] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧] ، وقوله : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل : ١٦] ، وفي الحديث **(مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ)**[1] .

---

(1) أبو داود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – الصحيحة (٧٩٣) .

[٢٦] بَــابُ
مَــا جَــاءَ فِــي الــنُّـشْــرَةِ

النُّشْرَة بضم النون قال في النهاية (النشرة ضرب من العلاج والرقية يعالج به من يُظَنُّ أن به مسًّا من الجن، سُميت نُشرة لأنه يُنشر بها عنه ما خمره من الداء أي يُكشف ويزال، قال الحسن: النُشرة من السحر، وقد نَشَّرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث (**لعلَّ طبًّا أصابه**) ثم نَشَّره بقل أعوذ برب الناس (**أي رقاه**) انتهى[1].

لما ذكر المصنف – رحمه الله – حكم السحرة والكهانة ذكر ما جاء في النُّشرة، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون من النوع المباح بإستخدام الرقية الشرعية وغيرها.

والمقصود بالنُّشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان:

١– حل السحر بسحر مثله وهو الذي من عمل الشياطين وهذا النوع محرم.

٢– حل السحر عن المسحور بالرُّقية والتعوُّذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز.

---

(1) النهاية لابن الأثير (٥/٤٦).

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – ومن أنفع علاج السحر الأدوية الإلهية ، بل هي أدويتُه النافعة بالذات ، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية ، ودفعُ تأثيرها يكون لما يُعارِضها ويُقاومها من الأذكار والآيات والدعوات التي تُبطِلُ فعلها وتأثيرها ، وكلما كانت أقوى وأشدَّ، كانت أبلغ في النُّشرة وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحدٍ منهم عُدَّتُه وسلاحُه ، فأيُّهما غلب الآخر ، قهره ، وكان الحكم له ، فالقلبُ إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره ، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات وردٌ لا يُخِلُّ به يُطابق فيه قلبه لسانه ، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له ، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه.

وعند السحرة : أن سِحرهم إنما يَتِمُّ تأثيره في القلوب الضعيفة، المنفعِلة ، والنفوس الشهوانية التي هي معلقة بالسُّفليات ، ولهذا فإنَّ غالب ما يؤثر في النساء والصبيان ، والجُهال ، وأهل البوادي ، ومن ضَعُفَ حظه من الدين والتوكل والتوحيد ، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوُّذات النبوية .

وبالجملة : فسلطان تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة التي يكون ميلُها إلى السُّفليات ، قالوا : والمسحورُ هو الذي يُعين على نفسه ، فإنا نجد قلبه مُتعلقاً بشيء كثير الإلتفات إليه ، فيتسلط على قلبه بما فيه من

الميل والإلتفات، والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعِدَّة لتسلُّطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة ، وبفراغها من القوة الإلهية ، وعدم أخذها للعدة ، التي تُحاربها بها ، فتجدها فارغة لاعدة معها وفيها ميل إلى ما يُناسبها ، فتتسلط عليها ، ويتمكن تأثيرُها فيها بالسحر وغيره[1] ، والله أعلم.

(1) زاد المعاد للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٤/١١٦ – ١١٧) .

[٢٧] بَـابُ
مَـا جَـاءَ فِي الـتَّـطَـيُّـرِ

أي ما جاء من النهي عنه والوعيد قال ابن الأثير – رحمه الله – في النهاية : (الطِيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن هي التشاؤم بالشيء وهو مصدر تطيَّر يقال تطير طيرة وتخير خيرة ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما وأصله مما يقال : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع، وأبطله ونهى عنه ، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر)[1] .

وأصل التطيُّر أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمرٍ ، فإن رأى الطير طار يمنة تيمَّن به واستمرَّ وإن رآه طار يسرةً تشاءم به ورجع ، فجاء الشرع بالنهي عنه، ولما كانت الطيرة باباً من الشرك المنافي للتوحيد أو لكماله ، لأنها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكره المصنف في كتاب التوحيد تحذيراً منها وإرشاداً إلى كمال التوحيد للتوكل على الله ولأن التطير ينافي التوكل وذلك باعتقاد النفع

(1) النهاية لابن الأثير (٣/ ١٥٢) .

والضُّر في طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد وإنما تذهب وتجيء في ضرورة معايشها وشؤونها فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثراً في جلب خير أو دفع ضُر من سخف العقول وفساد الفطر والتطير ينافي التوحيد من وجهين :

١ - أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله .

٢ - أنه تعلق بأمر لا حقيقة له بل هو وهم وتخييل فأي رابطة بين هذا الأمر ، وبين ما يحصل له ، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد ، لأن التوحيد عبادة واستعانة قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [هود : ١٢٣]، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

فالطيرة محرمة وهي منافية للتوحيد كما سبق ، **والمتطير لا يخلو من حالين :**

الأول : أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل وهذا من أعظم التطير والتشاؤم .

الثاني : أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به وهذا أهون .

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله – عزَّ وجلَّ – ولا تسيء الظن بالله – عزَّ وجلَّ – .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**لَا عَدْوَى ، وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ**)، أخرجاه[1]، زاد مسلم: (**وَلَا نَوْءَ، وَلَا غَوْلَ**)[2] .

وقد أبطل الإسلام ما كان يعتقده أهل الجاهلية من النفع والضُر في هذه الأشياء وأنها تؤثر بنفسها من غير إرادة الله – عزَّ وجلَّ –.

العدوى : وهي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح وكانت العرب في الجاهلية تعتقد أن المرض يعدي بطبعه من غير تقدير الله تعالى.

الهامة : وهو طائر كبير يضعف بصره في النهار ويظهر بالليل ويقال له بوم كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نَعَتْ إليَّ نفسي أو واحداً من أهلي ذلك فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

صفر : قيل هو شهر صفر كان أهل الجاهلية يتشاءمون به .

---

(1) البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠) .

(2) مسلم (٢٢٢٢) من حديث جابر – رضي الله عنه –

النوء : موضع سقوط الكوكب وقيل هو الكوكب كانوا ينسبون إليه نزول المطر فأبطل الإسلام ذلك وإنما نُمطر ونُرزق بفضل الله ورحمته .

الغول : واحد الغيلان وهو جنس من الشياطين كانوا يعتقدون أنها تتعرض لهم في الطريق فتضلهم عنه وتهلكهم فنفى النبي ﷺ ذلك بمعنى إنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله تعالى والتوكل عليه.

قوله : (**وَلَا طِيَرَةَ**) قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – : يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً ، أي : لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث : (**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ**) يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها ، والنفي في هذا أبلغ من النهي ، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ (**وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ، قَالَ : ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ – قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ : فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**)[1] ، فأخبر أن تأذيه وتَشاؤُمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته ، لا في المتطير به ، فوهمه

---

(1) مسلم (٥٣٧) .

وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأمته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ، ليعلموا أن الله – سبحانه – لم يجعل لهم عليه علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السماوات والأرض ، وعمر الدارين – الجنة والنار – بسبب التوحيد ، فقطع ﷺ علق الشرك في قلوبهم ، لئلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وبادر خواطرها من قبل استمكانها ، قال عكرمة : (كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير . فقال له ابن عباس ، لا خير ولا شر) .

فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر ، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل ، خير . فقال طاووس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبني . ا. هـ. ملخصاً[1] .

(1) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤ – ٢٣٥) .

وقد جاءت أحاديث، ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله: (الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ)[1]. ونحو هذا.

قال ابن القيم – رحمه الله –: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله – سبحانه – قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس.

الله – سبحانه – خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها.

وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب، وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة،

(1) البخاري (٥٠٩٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

ولذَّذ بها من قاربها من الناس ، وخلق ضدها ، وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس .

والفرق بين هذين النوعين مُدرَك بالحس ، فكذلك الديار والنساء والخيل ، فهذا لون ، والطيرة الشركية لون . انتهى[1] .

(1) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥) .

[٢٨] بَـــابُ
مَـا جَـاءَ فِــي التَّـنْجِيـمِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أنَّ بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافي للتوحيد وبيان ما جاء فيه من الوعيد وهو ما يسمى بعلم التأثير وهو الإستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية وهو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث التي لم تقع وستقع كموت إنسان أو حياته أو سعادته أو شقاوته، ومافي معناها من الحوادث التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب ويعتقدون أنَّ لهذه الكواكب تأثيراً على الحوادث الأرضية وهذا النوع من الشرك منافي للتوحيد لما فيه من دعوى مشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به ، أو تصديق لمن ادَّعى ذلك وتعلق للقلب بغير الله – عزَّ وجلَّ – .

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين :

١ – علم التأثير **٢ – علم التسيير**

الأول : علم التأثير : وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ – أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة ، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور ، فهذا شرك أكبر لأن من ادعى أن مع الله خالقاً فهو مشرك شركاً أكبر فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً .

ب- أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا ، لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا ، مثل أن يقول : هذا الإنسان ستكون حياته شقاءً ، لأنه ولد في النجم الفلاني ، وهذا حياته ستكون سعيدة لأنه ولد في النجم الفلاني، فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لإدعاء علم الغيب ، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة لقوله تعالى : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل : ٦٥] ، وهذا من أقوى أنواع الحصر لأنه بالنفي والإثبات فإذا ادعى أحد علم الغيب فقد كذَّب القرآن .

ج- أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر ، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم ، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه فهذا شرك أصغر .

الثاني : علم التسيير : وهذا ينقسم إلى قسمين :

أ- أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية ، فهذا مطلوب وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة فهذا فيه فائدة عظيمة .

ب- أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية فهذا لا بأس به وهو نوعان :

النوع الأول : أن يستدل بها على الجهات كمعرفة أن القطب يقع شمالاً والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً وهكذا فهذا جائز ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] .

النوع الثاني : أن يستدل بها على الفصول وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف وأباحه آخرون والذين كرهوه قالوا : يخشى إذا قيل : طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء أو الصيف : أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح ، والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر ، لأنه لا شرك فيها إلا إن تعلَّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد وأنها هي الجالبة لذلك ، فهذا نوع من الشرك ، أما مجرد معرفة الوقت بها : هل هو الربيع أو الخريف ، أو الشتاء ، فهذا لا بأس به .

[٢٩] بَـــابُ
مَـــا جَـاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْــوَاءِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أنه لما كان من تمام توحيد العبد الإعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق والإعتراف لله بتفرده بالنعم ودفعه للنقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واعتقاداً والاستعانة بهذه النعم على طاعته – عزَّ وجلَّ – وشكره عليها ، فكان قول القائل مطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة بنسبة النعم لغير الله من الكواكب والمخلوقات التي لا قدرة لها على شيء بل هي مخلوقة من مخلوقات الله – عزَّ وجلَّ – لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً .

والاستسقاء طلب السُقيا والمراد به هنا نسبة السُقيا ومجيء المطر إلى الأنواء ، **والأنواء جمع نوء** ، والنوء في أصله ليس هو نفس الكوكب ، فإنه مصدر ناء ينوء نوءاً نهض وطلع ، فالنوء هو الطالع سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء مقابله الطالع بالمشرق ، وقيل ناء سقط وغاب ، ولا تخالف بين القولين وهي ثمانية وعشرون نجماً ، معروفة المطالع في أزمنة السنة كُلها مشهورة بمنازل القمر ، ينزل كل ليلة منزلة منها في كل شهر قال تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس : ٣٩] ، تسقط كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أُخرى مقابلها ذلك الوقت من المشرق ، تنقضي جميعها مع انقضاء السنة ، وكانت العرب تزعم أن سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطراً وينسبونه إلى النجم الساقط ويقولون : مُطرنا بنوء كذا .

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : شرك أكبر : وله صورتان :

الأولى : أن يدعو الأنواء بالسُقيا ، كأن يقول : يانوء كذا اسقنا أو اغثنا ، وما أشبه ذلك فهذا شرك أكبر لأنه دعا غير الله ودعاء غير الله من الشرك الأكبر قال تعالى : ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف : ٥ - ٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس : ١٠٦] .

الثانية : أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعُها ، فهذا شرك أكبر في الربوبية ،

والأول في العبادة ، لأن الدعاء من العبادة وهو متضمن للشرك في الربوبية ، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة .

القسم الثاني : شرك أصغر : وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل ، لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركاً أصغر .

[٣٠] بَـــابُ

قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]

لما كانت محبة الله – سبحانه – هي أصل دين الإسلام فبكمالها يكمل ، وبنقصها ينقص توحيد العبد فإنَّ المحبة هي أصل التوحيد وروحه وتجب لله وحده لا شريك له وهي أصل التأله والتعبد له بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه ، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة ، التي بها سعادة العبد وفلاحه ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال ، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه ، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده ، أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ، ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم ، فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد وتعلَّق بغيره ممن لا يملك له شيئاً ، وهذا السبب الواهي الذي تعلَّق به المشركون سينقطع يوم القيامة ، أحوج ما يكون العبد لعمله ، وستنقلب هذه المودة والموالاة

بغضاً وعداوة ، ولهذا ترجم المصنف – رحمه الله – بهذه الآية الكريمة ، ليظهر ويوضح ما دلت عليه من الشرك باتخاذ الند وهو المِثل والشرك في محبة التأله والتعظيم التي هي أصل دين الإسلام .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في كلامه عن المحبة (والغاية التي وجدوا لأجلها فإنَّ الخلق والأمر والثواب والعقاب إنَّما نشأ عن المحبة ولأجلها وهي الحق الذي به خُلقت السماوات والأرض وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي وهي سر التأليه وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وليس كما زعم المنكرون أن "الإله" هو الرب الخالق ، فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله ولا خالق سواه ، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية لم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية وهو المحبة والتعظيم ، بل كانوا يُؤلهون مع الله غيره ، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً فهذا نِدٌّ في المحبة ، لا في الخلق والربوبية فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله .

والثاني : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، **والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى** : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **فإنَّ فيها قولين** :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً .

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يرجح القول الأول ويقول : إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له .

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم ، وهي مُحضرة معهم في العذاب ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء : ٩٧-٩٨] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١] ، أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم وهذا أصح القولين)[1] ، انتهى .

والمحبة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : محبة عبادة ، وهي التي توجب التذلل والتعظيم وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه ، وهذه خاصة بالله ، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة ، فهو مشرك شركاً أكبر ، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة .

القسم الثاني : محبة ليست بعبادة في ذاتها وهذه أنواع .

النوع الأول : المحبة لله وفي الله وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله ، أي كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص كالأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين ، أو أعمال كالصلاة والزكاة ، وأعمال الخير ، أو غير ذلك ، وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله .

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة ، وذلك كمحبة الولد ، والصغار والضعفاء والمرضى .

النوع الثالث : محبة إجلال وتعظيم لا عبادة ، كمحبة الإنسان لوالده ، ولمعلمه ، ولكبير من أهل الخير .

(1) مدارج السالكين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٣/ ٤٥٢ – ٤٥٥) .

النوع الرابع : محبة طبيعية كمحبة الطعام والشراب والملبس والمركب والمسكن .

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول والبقية من قسم المباح إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة ، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة وكذلك يحب ولده محبة شفقة وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة وكذلك المحبة الطبيعية كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة وهكذا .

والأسباب الجالبة لمحبة الله – عزَّ وجلَّ – والموجب لها عشرة ذكرها الإمام ابن القيم – رحمه الله – في مدارج السالكين .

(١) قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه .

(٢) التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة .

(٣) دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب ، والعمل والحال ، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

(٤) إيثار محابه على محابك عند غليان الهوى والتسنم إلى محابه ، وإن صعب المرتقى .

(٥) مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لامحالة ، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب .

(٦) مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فإنها داعية إلى محبته .

(٧) وهو من أعجبها إنكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

(٨) الخلوة به وقت النزول الإلهي لمنجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالإستغفار والتوبة .

(٩) مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام ، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .

(١٠) مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله – عزَّ وجلَّ – .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ودخلوا على الحبيب ، ومِلاك ذلك كله أمران : **استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة** ، وبالله التوفيق[1] .

(1) مدارج السالكين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٣/ ٤٤٨ – ٤٤٩) .

[٣١] بَــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥]

اعلم – رحمك الله – أنَّ العبادات على كثرتها **وتنوعها ترجع إلى أربعة أنواع :**

١ – عبادات قلبية مناطها القلب .

٢ – عبادات قولية تتعلق باللسان .

٣– عبادات عملية تتعلق بالجوارح .

٤ – عبادات مالية تتعلق بالأموال .

وأهم هذه العبادات ، **العبادات القلبية وأهم العبادات القلبية المحبة والخوف** ، فلما ذكر المصنف – رحمه الله – المحبة أعقبها بباب الخوف لأن العبادة ترتكز على شيئين المحبة والخوف ، فبالمحبة يكون امتثال الأمر وبالخوف يكون اجتناب النهي، ومناسبة ذكر الخوف في أبواب التوحيد أنَّ من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد ولما كان الخوف من الله من أجل مقامات الدين وأشرفها وأفضلها ، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى ، نبه المصنف بالترجمة بهذه الآية على وجوب إخلاص الخوف لله تعالى وقد ذكره الله في غير

موضع من كتابه ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ – ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، إلى غير ذلك من الآيات التي تفيد أن أعبد الناس لله وأكملهم به إيماناً أخوفهم من الله وأشدهم له خشية ومن هنا يعلم ضلال من زعم أنه لا يعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته ، فإنَّ الله أمرنا أن ندعوه خوفاً وطمعاً ومدح عباده الصالحين بأنهم يدعونه رغباً ورهباً وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥ – ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ - ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء ، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان :٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي يخوفكم أولياءه ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا نهيٌ من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمرٌ لهم أن يقصروا خوفهم على الله تعالى فلا يخافون إلا إياه ، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده ، ورضيه منهم فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمّنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – ومن كيد عدو الله : أن يخوِّف المؤمنين من جُنده

وأوليائهم ، لئلا يُجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن مُنكر ، وأخبر تعالى أنَّ هذا من كيد الشيطان وتخويفه ، ونهانا أن نخافه : قال : المعنى عند جميع المفسرين : يخوِّفكم بأوليائه ، قال قتادة يعظمهم في صدوركم ، فكلَّما قويَ إيمانُ العبد زال من قلبه خوفُ أولياء الشيطان ، وكلَّما ضعف إيمانه قويَ خوفه منهم، فدلَّت هذه الآية على أنَّ إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان . انتهى[1] .

والخوف أربعة أقسام :

الأول : الخوف من الله تألهاً وتعبداً له وتقرباً إليه وهو من أعظم واجبات الإيمان .

الثاني : خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك ، بقدرته ومشيئته سواء ادعى أنَّ ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الإستقلال ، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً لأن هذا من لوازم الإلهية ، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك ، وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – فقال لهم : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ

(1) إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم – رحمه الله – (١/ ١٣٠) .

﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠ – ٨١] ، وقال تعالى عن قوم هود إنهم قالوا له : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود ٥٤ – ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور ، فإنهم يخافون الأنداد بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد ، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله – عزَّ وجلَّ – ولا ريب أنَّ هذا ما بلغ إليه شرك الأولين بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظُلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب ، وإذا أراد أنَّ يظلم أحداً فاستعاذ بالله لم يعذه ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لـم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى.

الثالث : أن يترك الإنسانُ ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا لخوف من الناس فهذا مُحَرَّمٌ وهو الذي نزلت فيه الآية المترجم لها : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا

ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ - ١٧٥] .

الرابع : الخوف الطبيعي وهو الخوف من عدو أو سبُع أو غير ذلك فهذا لا يُذم كما قال تعالى في قصة موسى - عليه السلام - ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢١] .

[٣٢] بَـابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣]

التوكل : هو الاعتماد على الله – سبحانه وتعالى – في حصول المطلوب ودفع المكروه مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها وهو من العبادات القلبية وهو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله، ولذلك أمر الله به في غير آية من كتابه، وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدلَّ على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلَّما قوي توكُّلُ العبد كان إيمانه أقوى، وإذا ضعُف الإيمانُ ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليل على ضعف الإيمان ولابد، والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية، فظهر أنَّ التوكل أصلٌ لجميع مقامات

الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام ، وأنَّ منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأسُ إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعمالُه إلا على ساق التوكل[1] .

ولا بد فيه من أمرين :

الأول : أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً .

الثاني : فعل الأسباب المأذون فيها .

فمن جعل اعتماده على الأسباب ، نقص توكله على الله ويكون قادحاً في كفاية الله ، فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه، ومن جعل اعتماده على الله ملغياً للأسباب ، فقد طعن في حكمة الله لأن الله حكيم ، يربط الأسباب بمسبباتها ، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج .

ومراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين كما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وقال عن أوليائه

(1) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٣٢٧) .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤]، وقال لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الملك:٢٩]، وقال لرسوله ﷺ : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩]، وقال له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء : ٨١]، وقال له : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣]، وقال له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان : ٥٨]، وقال له : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]،

وقال عن أنبيائه ورسله – عليهم السلام – : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢]، وقال عن أصحاب نبيه ﷺ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣].

وقال في وصف عباده المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢]، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٨ – ٥٩].

وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب (هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[1].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾)[2]، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ)[3].

---

(1) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(2) البخاري (٤٥٦٣).
(3) البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

وعن عمر – رضي الله عنه – مرفوعاً : (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً)[1] .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (مَنْ قَالَ – يعنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللَّهِ توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ) رواه أبو داود، والترمذيُّ، والنِّسائِيُّ، وغيرُهم: وَقَالَ الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ، زاد أبو داود :(فَيَقُولُ: -يعْنِي الشَّيْطَانَ- لِشَيْطَانٍ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِي وَكُفِي وَوُقِي؟)[2] .

---

(1) رواه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الإمام الألباني –رحمه الله– الصحيحة (٣١٠).

(2) الترمذي (٣٤٢٦)، أبو داود (٥٠٩٥)، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – صحيح الترغيب (١٦٠٥).

يقول العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – **والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :**

الأول : توكل عبادة وخضوع ، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه ، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر ، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً ، مع شعوره بافتقاره إليه ، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى ، ومن صرفه لغير الله ، فهو مشرك شركاً أكبر كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون ، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار .

الثاني : الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك ، وهذا من الشرك الأصغر ، وقال بعضهم من الشرك الخفي مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه ، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار ، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر ، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب ، بل جعله فوق السبب .

الثالث : أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه ، كما لو وكَّلت شخصاً في بيع شيء أو شراءه ، وهذا لا شيء فيه ، لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه ، لأنه جعله نائباً عنه ، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أن يذبح ما بقي من هديه،

ووكل أبا هريرة على الصدقة ، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية ، وهذا بخلاف القسم الثاني ، لأن يشعر بالحاجة إلى ذلك ، ويرى اعتماده على المُتوكَّل عليه اعتماد افتقار .

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات ، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شئونه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية) ، لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى ، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأن يعتمد عليه ، وكذلك القدرية ، لأنهم يقولون : إن العبد مستقل بعمله ، والله ليس له تصرف في أعمال العباد .

ومن ثمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق ، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين[1] .

---

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين - رحمه الله - (٢/ ٣٦ - ٣٧) .

[٣٣] بَـــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩]

أراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافي التوحيد كما أن القنوط من رحمة الله كذلك ، فمن أمن من مكر الله لم يبالِ بما ترك من الواجبات وما فعل من المحرمات لعدم خوفه من الله – عزَّ وجلَّ – ، وكذلك القنوط من رحمة الله بأن يستبعد الإنسان حصول مطلوبه ، أو كشف مكروبه ، فهذا طعن في قدرة الله تعالى وطعن في رحمة الله تعالى بل يجب على المؤمن في هذه الحياة أن يجمع بين الخوف والرجاء ، ولهذا عقب الآية التي ترجم بها بقوله : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] ، فلا يغلب عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله بل يتساوى خوفه ورجاؤه وهذا مقام الأنبياء والصدِّيقين كما قال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧] ، ولهذا يُقال الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للطائر وقد مدح الله – عزَّ وجلَّ – أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ

يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، **فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمناً ، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً .**

وقال بعضهم من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حَرُوري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مُرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن مُوحِّد .

وأما عند الموت والإنتقال إلى الدار الآخرة فيُغلب جانب الرجاء لما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، **أَنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ :يقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)**[1] .

وفي صحيح مسلم **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ : (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ : (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)** [2] .

---

(1) البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(2) مسلم (٢٨٧٧).

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه باب الرجاء مع الخوف ، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري أي استحباب ذلك فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرجاء لئلا يفضي في الأول إلى المكر وفي الثاني إلى القنوط وكل منهما مذموم ، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه ، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها ، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور ، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي : من علامة السعادة أن تطيع ، وتخاف أن لا تقبل ، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو ، وقد أخرج ابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن أبيه (**عن عائشة قلت : يارسول الله** ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ **أهو الذي يسرق ويزني ؟ قال : لا ولكنه الذي يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبله منه**) وهذا كله متفق على استحبابه في حالة الصحة ، وقيل الأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه ، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى ، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته ويؤيده حديث (**لا يمُوتَنَّ أحدُكُم إلاَّ وهُوَ يُحسِنُ الظَنَّ بربِّه**) وسيأتي الكلام عليه

في كتاب التوحيد ، وقال آخرون لا يهمل جانب الخوف أصلاً بحيث يجزم بأنه آمن ، ويؤيده ما أخرج الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُ : " كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَ : أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي " . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلا وَأَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ) ولعل البخاري أشار إليه في الترجمة ، ولما لم يوافق شرطه أورد ما يؤخذ منه ، وإن لم يكن مساوياً في التصريح بالمقصود[1] . انتهى .

والمقصود من الباب أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء حتى لا يكون مفرطاً في الرجاء بحيث يصير من المرجئة القائلين لا يضر مع الإيمان شيء فإنَّ المعاصي تؤثر، ولا في الخوف بحيث لا يكون من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات عن غير توبة في النار ، بل يكون وسطاً بينهما ، كما قال تعالى : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء : ٧٥] ، ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولاً وفروعاً كلها في جانب الوسط . والله أعلم .

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر – رحمه الله – (١١/ ٣٦٤).

[٣٤] بَـــابٌ

مِنَ الإِيْمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن الصبر على أقدار الله – عزَّ وجلَّ – مما يتعلق بتوحيد الربوبية لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى، وكذلك بيان فضل الصبر وتحريم ضده المنقص لكمال التوحيد.

والصبر في اللغة: الحبس والكف ومنه قُتل فلان صبراً إذا أُمسك وحُبس ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي أحبس نفسك معهم.

وفي الإصطلاح: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما.

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – عن الصبر وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر، وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، وقوله : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

الثاني : النهي عن ضده ، كقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقوله: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] فإنَّ تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة ، وقوله : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] فإنَّ إبطالها ترك للصبر على إتمامها ، وقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] فإنَّ الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الثناء على أهله كقوله تعالى : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] ، وقوله : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] وهو كثير في القرآن .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

الخامس : إيجاب معيته لهم وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهي معية العلم والإحاطة

كقوله : ﴿ وَاصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، [الأنفال : ٦٦] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦].

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، ومنه قول النبي ﷺ : **(وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ)**[1] .

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى لموسى: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥] وقوله في أهل سبأ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى ٣٢ - ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة ، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه الله - سبحانه - باليقين وبالإيمان ، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة .

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له ، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (**خير عيش أدركناه بالصبر**) ، وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: أنه (ضياء)[1]، وقال : (**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ**)[2] ، وفي الحديث الصحيح (**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**)[3] ، وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع ، فسألته : أن يدعو لها (**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ، وَلَكِ الْجَنَّةُ،**

(1) هو جزء من حديث الطهور شطر الإيمان ، رواه مسلم (٢٢٣) .
(2) البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) .
(3) مسلم (٢٩٩٩) .

وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّـهَ أَنْ يُعَافِيَكِ ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّـهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا)[1] .

وأمر الأنصار – رضي الله تعالى عنهم – بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض .

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر ، وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر أنه إنما يكون **عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى)**[2] .

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له ، وهو الصبر والإحتساب[3] ، فإن ذلك يخفف مصيبته ، ويوفّر أجره ، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ويذهب الأجر .

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله فقال **(وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)**[4][5].

والصبر ثلاثة أقسام :

الأول : الصبر على طاعة الله قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] ، وغيرها من الطاعات التي أمر الشرع بها .

---

(1) البخاري (٥٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٧٦) .

(2) البخاري (١٢٨٣) ، ومسلم (٩٢٦) .

(3) وذلك لقوله ﷺ لابنته وقد احتضر ابنها (فلتصبر ولتحتسب) رواه البخاري (١٢٨٤) ، ومسلم (٩٢٣)

(4) البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) .

(5) مدارج السالكين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (٢/ ٤٢٠ – ٤٢٦) .

الثاني : الصبر عن معصية الله .

الثالث : الصبر على أقدار الله .

قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – والناس حال المصيبة على مراتب أربع :

الأولى : التسخط ، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه ، وقد يؤدي إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [الحج : ١١] ، وقد يكون باللسان ، كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك ، وقد يكون بالجوارح ، كلطم الخدود ، وشق الجيوب ، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك .

الثانية : الصبر ، وهو كما قال الشاعر :

الصبر مثل اسمه مُـرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه ، لكنه يتحمله ويتصبر ، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده ، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط .

الثالثة : الرضا ، وهو أعلى من ذلك ، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة ، لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر ، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على

سهل أو جبل ، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها ، فالكل عنده سواء ، لا لأن قلبه ميت ، بل لتمام رضاه بربه – سبحانه وتعالى – يتقلب في تصرفات الرب – عزَّ وجلَّ – ، ولكنها عنده سواء ، إذ أنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه ، وهذا الفرق بين الرضى والصبر .

الرابعة : الشكر ، هو أعلى المراتب ، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة ، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها ، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته ، وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك ، قال النبي ﷺ **(مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذىً ، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)**[1] ، كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك[2] .

(1) البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣) .

(2) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ٥٥ – ٥٦) .

[٣٥] بَـــابُ

مَـا جَـاءَ فِـي الـرِّيَـاءِ

الرِّيَـاء مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها ، والسمعة مشتقة من السمع والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر والفرق بين الرياء والسمعة أن الرياء لما يُرى من العمل الصالح مثل الصلاة وغيرها والسمعة لما يُسمع مثل قراءة القرآن والوعظ والذكر والتحدث بما عمله.

ولما كان إخلاص العمل لوجه الله - عزَّ وجلَّ - من كمال التوحيد وتمامه حذر المصنف - رحمه الله - من الرياء وبيان أنه من الشرك الأصغر ما لم يرد في أصل العمل وإلا كان من الأكبر ، والشرك الأصغر عرفه أهل العلم بأنه جميع الأقوال والأفعال التي يُتوسَّل بها إلى الشرك الأكبر ، كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة ، كالحلف بغير الله ، وكيسير الرياء ، وقول ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك، ومالي إلا الله وأنت وغير ذلك .

واعلم أنَّ العبادة لا بد لها من شرطين :

الأول : الإخلاص .

الثاني : المتابعة .

فإذا كان العمل لله – عزَّ وجلَّ – ووفق الشريعة فهو خالصاً وصواباً ، قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، قال – رحمه الله – أي كما أنه إله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسُّنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – (**اللهم أجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً**) ، وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر . انتهى[1] .

---

(1) الجواب الكافي للإمام ابن القيم – رحمه الله – (١٧٦) .

والرياء قد ينقلب من شرك أصغر إلى شرك أكبر بأحد ثلاثة أمور:

الأول : أن يُرائي الإنسان أو يُسمِّع بأصل إيمانه كمن يُظهر أمام الناس أنه مؤمن ليعصم دمه وماله .

الثاني : أن يغلب الرياء أو السمعة على أعمال الإنسان .

الثالث : أن يغلب على أعماله إرادة الدنيا بحيث لا يريد بها وجه الله .

حكم العبادة إذا خالطها الرياء

يقول العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – **وهو على ثلاثة أوجه** :

الأول : أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل ، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله ، فهذا شرك والعبادة باطلة .

الثاني : أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة .

فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها على أولها ، فأولها صحيح بكل حال ، والباطل آخرها، مثال ذلك : رجل عنده مائة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى في الخمسين الباقية ، فالأولى حكمها صحيح ، والثانية باطلة .

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها ، فهي على حالين :

أ- أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه ، بل يعرض عنه ويكرهه ، فإنه لا يؤثر عليه شيئاً ، لقول النبي ﷺ : **(إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ)**[1] .

مثال ذلك : رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله ، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه ، فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

ب- أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه ، فحينئذ تبطل جميع العبادة ، لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به .

مثال ذلك : رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله ، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه ، فاطمأن لذلك ونزع إليه، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض .

الثالث : ما يطرأ بعد انتهاء العبادة ، فإنه لا يؤثر عليها شيئاً ، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان ، كالمنِّ والأذى بالصدقة ، فإنَّ هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها ، لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

(١) البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) .

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته ، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة .

وليس من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه ، بل ذلك دليل على إيمانه ، قال النبي ﷺ : (مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ ، فَذَلِكُمُ الْمُؤمِنُ)[1] ، وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال : (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤمِنِ)[2][3] .

(1) الترمذي (٢١٦٥) ، ابن ماجه (٢٣٦٣)، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع (٢٥٤٦) ، والصحيحة (١١١٦) .

(2) مسلم (٢٦٤٢) .

(3) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ٦٤ – ٦٥) .

[٣٦] بَـابٌ

مِنَ الشِّـرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

هـو أن يعمـل الإنـسان أعـمالاً صـالحة مِـمَّـا يُبتغى بها وجه الله – عزَّ وجلَّ – ، يُريد بها وجه الله – عزَّ وجلَّ – ، ولكـن خـالط إرادته ونيَّتـه شيئاً آخـر ، كإرادة الـدنيا ، إمَّـا لقصد المال أو الجاه ، كالـذي يُـجاهد ، أو يتعلَّـم العلـم ليأخـذ مـالاً ، أو ليحتـل منـصباً ، أو يـتعلَّم القرآن ، أو يُـواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، أو نحو ذلك من الأعمال .

وأراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة بيان أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد ويحبط العمل وهو أعظم من الرياء لأن الإنسان الذي يعمل ريـاء يُريد أن يمدح في العبادة ، فيقال هو عابد ، ولا يُريد النفع المادي أما الذي يُريد بعمله الدنيا فهو يعبد الله مخلصاً له ولكنه يُريد شيئاً من الدنيا ، كالمال والمرتبة ، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك فهو يُريد بعمله نفعاً في الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة قال الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا

صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥ – ١٦] ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في هذه الآية : إنَّ أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً أو صلاةً أو تهجداً بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، وهكذا رُوي عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد ، وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وَسَدَمه وطلبته ونيته ، جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة قال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٨ – ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠][1] .

(1) تفسير الحافظ ابن كثير – رحمه الله – (٤/ ١٠ – ١١) .

أقسام الناس في العمل وما يُريدون به :

ينقسمون إلى أقسام منها :

النوع الأول : العمل الصالح ، الذي يفعلُه كثيرٌ من الناس ابتغاءَ وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلةٍ وإحسان إلى الناس ، وتركِ ظُلم ، ونحو ذلك مما يفعلُه الإنسانُ أو يتركه خالص لله ، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولا هِمَّة له في طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا ، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا النوع ، ذكره ابن عباس .

النوع الثاني : وهو أكبر من الأول ، وأخوف ، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيَّتُه رياءُ الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً ، مثل أن يحج لمال يأخذُه لا لله ، أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأةٍ يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقد ذُكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية ، وكما يتعلَّم الرجل لأجل مدرسةِ أهله أو مكسبهم ، أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله ، مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عمل يُكفِّره كفراً يخرجه عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى ، إذا عبدوا الله ، أو تصدَّقوا أو صاموا ابتغاءَ وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة ، الذين فيهم كفرٌ أو شركٌ أكبر ، يخرجهم من الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعةً خالصة يُريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة ، لكنَّهم على أعمال تُخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم ، فهذا النوع أيضاً قد ذُكر في هذه الآية ، عن أنس بن مالك وغيره ، وكان السلفُ يخافون منها[1].

(1) فتح المجيد للعلامة عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – ص (٤٣٧ – ٤٣٨) .

[٣٧] بَـــابٌ

مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِيْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة فإنَّ طاعة الله بإمتثال ما أمر به على ألسنة رسله عبادة لله – عزَّ وجلَّ – نبه المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة على وجوب إختصاص الرب تعالى بها وأنه لا يُطاع سواه إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله ، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه ، وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ، يتألههم ، ويتحاكم إليهم ، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله فهذا هو الكفر بعينه فإنَّ الحكم كله لله كما أنَّ العبادة كلها لله ، فلهذا ذكر ذلك المصنف – رحمه الله – لأن طاعة الأحبار والرهبان في تحريم الحلال وتحليل الحرام شركٌ أكبر ينافي التوحيد ، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] ، روى الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ،

من طرق، عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثُمَّ منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: (بَلَى! إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَدِيُّ، مَا تَقُولُ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللَّهِ؟ مَا يُفِرُّكَ: أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ إِلهاً غير اللَّه؟» ثم دعاه إلى الإسلام؛ فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه فاستبشر ثم قال: (إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ)[1].

---

(1) الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الإمام الألباني - رحمه الله - كما في «صحيح سنن الترمذي».

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدي: استنصحوا الرجال وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرَّم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه[1].

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن بن حسن - رحمه الله - وفي الحديث دليلٌ على أنَّ طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادةٌ لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويظهر ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ

---

(1) تفسير الحافظ ابن كثير - رحمه الله - (٣/ ٥٥٥).

ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلَّدوهم ، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد ، وهو من هذا الشرك .

ومنهم من يغلو في ذلك ، واعتقد أنَّ الأخذ بالدليل ، والحالة هذه، يُكره ، أو يحرم ، فعظُمت الفتنة ، ويقول : هم أعلمُ منا بالأدلة ، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوَّهوا بذمِّ من يعمل بالدليل ، ولا ريب أنَّ هذا من غُربةِ الإسلام ، كما قال شيخنا – رحمه الله – في المسائل .

فتغيَّرت الأحوالُ ، وآلت إلى هذه الغاية ، فصار عند الأكثر ، عبادةُ الرهبان ، هي أفضل الأعمال ، ويسمُّونها ولاية ، وعبادةُ الأحبار : هي العلم والفقه ، ثم تغيَّرت الحالُ إلى أن عُبد من ليس من الصالحين ، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

وأمَّا طاعة الأمراء ومتابعتُهم ، فيما يُخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمَّت بها البلوى قديماً وحديثاً ، في أكثر الولاة بعد الخُلفاء الراشدين وهلُمَّ جرا ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وعن زياد بن حُدير، قال: قال لي عُمر: (**هل تعرفُ ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زَلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المُضلّين**)[1].

جعلنا الله وإياكم من الذين يَهدون بالحق، وبه يعدِلون[2].

وقد أمر الله – عزَّ وجلَّ – بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحذر من المخالفة في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ

---

(1) الدارمي في (السنن) رقم (٢٢٠).

(2) فتح المجيد للعلامة عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – (٤٥٧ – ٤٥٨).

خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٧]، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣]، وقال تعالى : ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]، وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥]، وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣].

ونهى أن يقول أحد : هذا حلال وهذا حرام لما لم يحرمه الله ورسوله ﷺ، وأخبر أن فاعل ذلك مفترٍ على الله الكذب فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٦ — ١١٧].

[٣٨] بَـــابُ

قَـوْلِ اللَّـهِ تَـعَالَـى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النساء]

لما ذكر المصنف – رحمه الله – في الباب الذي قبل هذا حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ، ذكر في هذا الباب الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله ﷺ والتنبيه على ما تضمنه التوحيد واستلزمه ، من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولازمها فمن عرف هذه الشهادة لا بد له من الانقياد لحكم الله وحكم رسوله ﷺ .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية ، هذا إنكار من الله – عزَّ وجلَّ – على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى

الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية : أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف ، وقيل: في جماعة من المنافقين ، ممن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية ، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسُّنة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هاهنا ، ولهذا قال : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾ .

وقوله : ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾ أي : يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان : ٢١] ، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين ، الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك ، ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي : يعتذرون إليك ويحلفون : ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق ، أي : المداراة والمصانعة ، لا اعتقاداً منّا بصحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢][(1)] .

يقول الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله – رحمه الله – في تيسير العزيز الحميد : لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ ، مستلزماً له ، وذلك هو الشهادتان ، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله : (**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**)[(2)] ، نبه

---

(1) تفسير الحافظ ابن كثير – رحمه الله – (٢/ ٤٤٠ – ٤٤١) .

(2) البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لابد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلا بد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره، الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنياً على الشهادتين، أذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده نبه في هذا الباب على معنى شهادة أنَّ محمداً رسول الله، التي تتضمن حق الرسول ﷺ، فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المبلِّغ عن الله تعالى، فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة، والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله، ومحبته على النفس، والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال ﷺ: (**إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**)، ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذين يدعون الإيمان به، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق

العبد بكمال التوحيد ، وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته ، وهو معنى الشهادتين ، إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وعلى الأنبياء قبله ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر المصنف في سبب نزولها ، قال ابن القيم : والطاغوت كل من تعدى به حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذ قد تعدى به حده ، ومن هذا كل من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ، وجاوز بمعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له ، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت ، وتأمل تصديره سبحانه الآية منكراً لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ ، وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ ، ويتحاكم إليه عند النزاع وفي ضمن قوله : ﴿يَزْعُمُونَ﴾ نفي لما زعموه من الإيمان ، ولهذا لم يقل : (ألم تر إلى الذين آمنوا) فإنهم لو كانوا أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولم يقل فيهم يزعمون فإن هذا إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب أو مُنزل منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها ، قال ابن كثير : والآية ذامة لمن عدل

عن الكتاب والسُّنة وتحاكم إلى ما سواهم من الباطل وهو المراد بالطاغوت هاهنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ .

أي بالطاغوت وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت منافٍ للإيمان مضاد له ، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترك التحاكم إليه فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله .

وقوله : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

أي : لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير ، وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت ، الذي هو ما سوى الكتاب والسُّنة ، من الفرائض وأن التحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ .

أي : إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضاً مستكبرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور : ٤٨] ، قال ابن القيم : هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسُّنة ، فلم يقبل ، وأبى ذلك أنه من

المنافقين، و ﴿يَصُدُّونَ﴾ هنا لازم لا متعد، هو بمعنى يعرضون، لا بمعنى يمنعون غيرهم، ولهذا أتى مصدره على صدود، ومصدر التعدي صداً، فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسُّنة، والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه؟ ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق، الإحسان في فعله ذلك، والتوفيق بين الطاغوت الذي حكمه، وبين الكتاب والسُّنة؟ قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم، فقليلاً ما يؤمنون[1].

ولتعلم - رحمك الله - أن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

(1) تيسير العزيز الحميد للعلامة سليمان بن عبد الله - رحمه الله - ص (٤١٢ - ٤١٣).

وقد عرف الإمام ابن القيم – رحمه الله – **الطاغوت بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع**، وكذلك كل من عبد شيئاً من دون الله بأي نوع من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر والحلف وغير ذلك فإنما عبد الطاغوت فإن كان المعبود صالحاً أو نبياً كالمسيح – عليه السلام– أو ملك من الملائكة كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ – ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس: ٢٨ – ٣٠].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو ضريحاً أو مزاراً أو غير ذلك فهي من الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود

سوى الله كائناً من كان ، فالتوحيد هو الكفر بكل ما عبد من دون الله كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزخرف : ٢٦] فلم يستثنِ من كل معبود إلا الذي فطره – سبحانه وتعالى – وهذا معنى لا إله إلا الله ، وكذلك قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة : ٤] ، وكذلك من خالف حكم الله ورسوله بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله فهو طاغوت .

[٣٩] بَــابُ
مَنْ جَـحَـدَ شَيْئاً مِـنَ الأَسْمَـاءِ وَالصِّفَـاتِ

لما كان التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه نوعين :

أحـدهما : توحيـد في المعرفـة والإثبـات وهـو إثبـات حقيقـة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه .

والثـاني : توحيـد في الطلـب والقـصد وهـو توحيـد الإلهيـة وهمـا متلازمان لا يصح أحدهما بدون الآخر .

نبه المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة على أن من جحد شيئاً من الأسـماء والـصفات التـي وردت في الكتـاب والـسُّنة لم يـصح توحيـده وإن جحدها كفرٌ يخرج من الإسلام .

وتوحيـد الأسـماء والـصفات أحـد أنـواع التوحيـد الثلاثـة **وهـي توحيـد الربوبيـة ، وتوحيـد الإلهيـة ، وتوحيـد الأسـماء والـصفات** ، وهـو إفـراد الله – سـبحانه وتعـالى – بـما سـمَّى بـه نفسه ووصـف بـه نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ نفياً وإثباتـاً ، فيُثبـتُ لـه مـا أثبتـه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ، ويُـنفَـى عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ **من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكـييـف ولا تمثيل ، وهذا النوع مـن أنواع التوحيد ينبني على قواعد عند أهل السُّنة والجماعة .**

الأسس التي يتركز عليها مبحث آيات الصفات :

الأمر الأول : هو تنزيه الله جلَّ وعلا عن أن يُشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين ، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] .

الأمر الثاني : الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ، قال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، وما وصفه به رسوله ﷺ ، لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم : ٣ - ٤] .

الأمر الثالث : قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية هذه الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ، فيلزم على كل مكلَّف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، ويُنزِّهَ ربَّه - جلَّ وعلا - عن أن تُشبه صفته صفةَ الخلق[1] .

---

(1) صفات الله - عزَّ وجلَّ - للإمام العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - (٢٤ - ٢٥) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مجموع الفتاوى فمذهب سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وسائر الأئمة المتبوعين الإقرار والإمرار، قال أبو سليمان الخطابي، وأبو بكر الخطيب: مذهب السلف في آيات الصفات، إجراؤها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها وقالا في ذلك إنَّ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله فإذا كان إثبات ذاته إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إثبات وجود لا إثبات كيفية، فلا تقول: إن معنى اليد القدرة، ولا إن معنى السمع العلم، هذا كلامهما.

وقال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف ينزل إلى سماء الدنيا؟ فقل له: كيف هو في نفسه؟ فإن قال: نحن لا نعلم كيفية ذاته، فقل: ونحن لا نعلم كيفية صفاته، وكيف نعلم كيفية صفة، ولا نعلم كيفية موصوفها.

ومن فهم من صفات الله تعالى ما هو مستلزم للحدوث مجانس لصفات المخلوقين ثم أراد أن ينفي ذلك عن الله فقد شبه وعطل، بل الواجب أن لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا نتجاوز القرآن والحديث وأن نعلم مع ذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في نفسه ولا في أوصافه ولا في أفعاله، وإن الخلق لا تطيق

عقولهم كنه معرفته ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ – ١٨٢] .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم[1] .

الـجَـحْـدُ : الإنكار ، والإنكار نوعان :

الأول : إنكار تكذيب ، وهذا كفر بلا شك ، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسُّنة ، مثل أن يقول : ليس لله يد ، أو أن الله لم يستو على عرشه ، أو ليس له عين ، فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع .

الثاني : إنكار تأويل ، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها ، **وهذا نوعان :**

١ – أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية ، فهذا لا يوجب الكفر .

٢ – أن لا يكون له مُسَوِّغ في اللغة العربية ، فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مُسَوِّغ صار في الحقيقة تكذيباً ، مثل أن يقول : المراد

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – (١٢/ ٥٧٥) .

بقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] ، تجري بأراضينا ، فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً ، فهو مكذب .

ولو قال في قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، المراد بيديه : السماوات والأرض ، فهو كافر أيضاً لأنه لا مُسَوِّغ له في اللغة العربية ، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية ، فهو مُنكر ومُكذِّب ، لكن إن قال : المراد باليد النعمة أو القوة ، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة .

قال الشاعر :

وكم لظلام الليل عندَكَ من يَدٍ ... تُحدث أنَّ المانَويَّة تكذبُ

فقوله : (من يد) أي : من نعمة لأن المانوية يقولون : إن الظلمة لا تخلق الخير ، وإنما تخلق الشر .

قوله : **(من الأسماء)**

جمع اسم ، واختلف في اشتقاقه ، فقيل : من السُّمُو ، وهو الارتفاع ، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر .

وقيل: من السِّمة وهي العلامة ، ووجهه : أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما .

والمراد بالأسماء هنا أسماء الله – عزَّ وجلَّ – ، وبالصفات صفات الله – عزَّ وجلَّ – **والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها .**

البحث في أسماء الله :

المبحث الأول :

أن أسماء الله أعلام وأوصاف ، وليست أعلاماً محضة ، فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام ، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف ، بخلاف أسمائنا ، فالإنسان يسمي ابنه محمداً وعلياً دون أن يلحظ معنى الصفة ، فقد يكون اسمه علياً وهو من أوضع الناس ، أو عبد الله وهو من أكفر الناس ، بخلاف أسماء الله ، لأنها متضمنة للمعاني ، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته ، والعزيز يدل على العزة ، والحكيم يدل على الحكمة ، وهكـــذا .

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : دلالة مطابقة ، وهي دلالتها على جميع معناه المحيط به .

الثاني : دلالة تَضَمُّن ، وهي دلالته على جزء معناه .

الثالث : دلالة التزام ، وهي دلالته على أمر خارج لازم .

مثال ذلك : الخالق يدل على ذات الله وحده ، وعلى صفة الخالق وحدها دلالة تضمن ، ويدل على ذات الله ، وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة ، ويدل على العلم والقدرة دلالة إلتزام .

كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطـــلاق : ١٢] ، فعلمنا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض ، وعلمنا العلم من

ذلك أيضاً ، لأن الخلق لابد فيه من علم ، فمن لا يعلم لا يخلق ، وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه ؟!

المبحث الثاني :

أن أسماء الله مترادفة متباينة ، **المترادف** : ما اختلف لفظه واتفق معناه، **والمتباين** : ما اختلف لفظه ومعناه ، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله – عزَّ وجلَّ – ، لأنها تدل على مسمى واحد ، فالسميع ، البصير ، العزيز ، الحكيم ، كلها تدل على شيء واحد هو الله ، ومتباينة باعتبار معانيها، لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير ، وهكذا .

المبحث الثالث :

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين ، والدليل على ذلك قوله ﷺ: في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور : (**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**)[1]، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به ، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور .

(1) أحمد،(٦/ ٢٤٧) ، والحاكم، (١/ ٥٠٩)، والطبراني في المعجم الكبير، (٩/ ١٣) ، والبزار، (٥/ ٣٦٣)، وابن أبي شيبة، (١٠/ ٢٥٣) ، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج الأذكار، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب، (ص٧٣).

وأما قوله ﷺ : (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[1] ، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة ، فقوله : (مَنْ أَحْصَاهَا) تكميل للجملة الأولى ، وليست استئنافية منفصلة ، ونظير هذا قول القائل : عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله ، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة ، بل معناه أن هذه المائة مُعَدَّة لهذا الشيء .

المبحث الرابع :

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق ، فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء ، ونؤمن بما تضمَّنه من الصفة، ونؤمن بما تدُل عليه هذه الصفة من الأثر والحُكم إن كان الاسم متعدياً ، فمثلاً : السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع ، وأنه دال على صفة السمع ، وأن لهذا السمع حكماً وأثراً وهو أنه يسمع به ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] ، أما إن كان الاسم غير متعد،

---

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) .

كالعظيم ، والحي ، والجليل ، فنثبت الاسم والصفة ، ولا حكم له يتعدى إليه .

البحث في صفات الله :

المبحث الأول :

تنقسم صفات الله تعالى إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ذاتية ويقال معنوية .

الثاني : فعلية .

الثالث : خبرية .

فالصفات الذاتية : هي الملازمة لذات الله ، والتي لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، مثل: السمع والبصر وهي معنوية ، لأن هذه الصفات معاني.

والفعلية : هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها ، مثل : النزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، والكلام من حيث آحاده ، والخلق من حيث آحاده ، لا من حيث الأصل ، فأصل الكلام صفة ذاتية ، وكذلك الخلق .

والخبرية : هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله ، فلا يقال هكذا، بل يقال : صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسُّنة ، وهي ليست معنىً ولا فعلاً ، مثل ، الوجه ، والعين ، والساق ، واليد .

المبحث الثاني :

الصفات أوسع من الأسماء ، لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كل صفة تكون اسماً ، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه ، فيوصف الله بالكلام والإرادة ، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد .

المبحث الثالث :

أن كل ما وصف الله به نفسه ، فهو حق على حقيقته ، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف ، أما التمثيل فلقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه ، **لوجوه ثلاثة :**

أحدها : أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقاً ، بخلاف التشبيه ، فلم يأت القرآن بنفيه .

الثاني : أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح لأن كل موجودين فلا بد أن يكون بينهما قدرٌ مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به ، فـ (الحياة) مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق ، فبينهما قدرٌ مشترك ، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به .

الثالث : أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه ، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهاً ، فإذا قلنا من غير

تشبيه ، فَهِمَ هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه .

وأما التكييف ، فلا يجوز أن نُكيِّف صفات الله ، فمن كيَّف صفة من الصفات ، فهو كاذب عاصٍ ، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه ، عاصٍ لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرَّمه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية ، لقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ، وقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً ، أو بالبنان تحريراً ، ولهذا قال مالك – رحمه الله – حين سُئل عن كيفية الاستواء : (الكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة) ، وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية ، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا ، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود ، فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية ، لكننا لا نعلمها ، ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة ، وهذا هو الواجب ، فنقول : لها كيفية ، لكن غير معلومة .

فإن قيل : كيف يُتَصوَّر أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لا نعلمها ؟

أجيب : إنه متصور ، فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله ، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها ، أو شاهد نظيرها ، أو أخبره شخص صادق عنها[1] .

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين - رحمه الله - (٢/ ١٠٨ - ١١٣) .

[٤٠] بَـابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل]

أراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة بيان أنَّ من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكاً في الربوبية ، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل ، هذا من وجه ومن وجه آخر : أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات وترك الشكر منافٍ للتوحيد لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم – سبحانه وتعالى – فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة ، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية ، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – فذكرهم بأصول النعم وفروعها وعدَّها عليهم نعمة نعمة ، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ، ليسلموا له ، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم ، ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[1] .

(1) شفاء العليل للإمام ابن القيم – رحمه الله – (ص٣٦) .

وقال مجاهد : المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ، ثم ينكرونه بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم ، وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لكان كذا وكذا ، وقال الفراء وابن قتيبة : يعرفون أن النعم من الله ، ولكن يقولون : هذه بشفاعة آلهتنا ، وقالت طائفة : النعم هاهنا محمد ﷺ وإنكارها جحدهم نبوته ، وهذا يروى عن مجاهد والسدي ، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة[1] .

ولتعلم - رحمك الله - أن أركان الشكر ثلاثة :

١ - اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره بأن يعتقد أن هذه النعمة من الله - سبحانه - وقد قدَّرها الله له .

٢- نسبتها إلى المنعم - سبحانه وتعالى - والتحدث بها والثناء على الله بها ، فيلهج لسانه بشكر الله - سبحانه - كما أمر الله - عزَّ وجلَّ - ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] ، فيظهر الشكر لله - سبحانه - بالتحميد ونحوه .

٣- الاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته وبذلها فيما يحب ، وهو أن يعمل الإنسان بهذه النعم بطاعة الله سبحانه وتعالى ولا يستعملها فيما يكرهه الله ويبغضه .

(1) تفسير ابن جرير الطبري - رحمه الله - (٨/ ٢٠٦ - ٢٠٧) .

[٤١] بَـــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]

الـنِّـد : المثل والنظير، وجعل الـنِّـد لله : هو صرف نـوع مـن أنـواع العبادة لغير الله تعالى كحال عبدة الأضرحة والقبور والـصالحين الـذين يـستغيثون بهـم ويـدعونهم مـن دون الله وينـذرون لهـم ويعتقـدون فـيمن يدعونه ويرجونه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ويشفع لهم .

أراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب التحذير من الـشرك ، وقـد أورد في الأبواب المتقدمة شيئاً من ذلك ، ولكنه هنا أراد التحذير من نوع من أنواع الشرك يختلف عما أورده سابقاً ، فقد مر بنا **أن الشرك نوعان** :

النوع الأول : الشرك الأكبر المخرج مـن ملـة الإسلام ، وصـاحبه مخلد في نار جهنم والعياذ بالله .

النوع الثاني: وهو الشرك الأصغر أو الشرك الخفي وهو الذي أراد المصنف بيانه في هذا الباب ، وهو في الحقيقة ليس صـغيراً بـل إن صـاحبه على خطر عظيم ، وإنما سُمي بـذلك بالنسبة إلى مـا هـو أكـبر منـه وهـو الشرك الأكبر ، ولذلك جعلوا **ضابط الشرك الأصغر هو مـا كـان وسـيلة**

وطريقاً للشرك الأكبر ، وهذا الباب فيما يتعلق بالشرك الأصغر في الأقوال ، وقد أورد المصنف جملةمنها للحذر من الوقوع فيها ، وليس لهذا النوع كفارة إلا التوبة وأن يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير .

وهذه الآية جاءت في سياق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة : ٢١ – ٢٢] ، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته ، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده ، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشا ، أي : مهداً كالفراش مُقرَّرة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ وهو السقف ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ، وأنزل لهم من السماء ماءً -والمراد به السحاب هاهنا – في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزقاً لهم ولأنعامهم ، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤] ، ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار ، وساكنيها ، ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غيره ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : قلت يارسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : (**أن تجعل لله نداً ، وهو خلقك ...**)[1] الحديث .

وكذا حديث معاذ : (**أتدري ما حق الله على عباده ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ....**)[2] الحديث وفي الحديث الآخر : (**لا يقولن أحدكم : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن ليقول ما شاء الله ، ثم شاء فلان**)[3].

وقال حماد بن سلمة : حدثنا عبد الملك بن عمير ، عن رِبْعيٍّ بن حِرَاش ، عن الطفيل بن سَخْبَرَة ، أخي عائشة أم المؤمنين لأمها ، قال : رأيت فيما يرى النائم ، كأني أتيت على نفر من اليهود ، فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عُزير ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، قال : ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : من أنتم ؟

---

(1) البخاري (٦٨٦١) ، ومسلم (٨٦) .

(2) البخاري (٧٣٧٣) ، ومسلم (٣٠) .

(3) أبو داود (٤٩٨٠) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – الصحيحة (١٧٣) .

قالوا : نحن النصارى ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ، المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها مَنْ أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال: (**هل أخبرت بها أحداً ؟**) ، فقلت : نعم ، فقام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (**أما بعد ، فإن طُفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده**)[1]، هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة ، به ، وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر ، عن عبد الملك بن عمير به ، بنحوه .

وقال سفيان بن سعيد الثوري ، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس ، قال : قال رجل للنبي ﷺ ماشاء الله وشئت ، فقال : (**أجعلتني لله ندًّا ؟ قل ما شاء الله وحده**)[2] ، رواه ابن مردويه ، وأخرجه النسائي ، وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح ، به .

وهذا كله صيانة ، وحماية لجناب التوحيد ، والله أعلم .

---

(1) ابن ماجه (٢١١٨)، أحمد (٢٠٧١٣)، والدارمي (٢٦٩٩) ، وصححه الإمام الألباني –رحمه الله– الصحيحة (١٣٨) .

(2) رواه ابن ماجه (٢١١٧) ، والإمام أحمد (١/ ٢١٤) ، وصححه الإمام الألباني –رحمه الله – في الصحيحة (١٣٩) .

وقال محمد بن أسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين ، أي : وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم .

وبه عن ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي : لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه ، وهكذا قال قتادة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم ، حدثنا أبي عمرو ، حدثنا أبي الضحاك بن مخلد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس ، في قول الله – عزَّ وجلَّ – ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ قال : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يافلان ، وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لو لا الله وفلان ، لا تجعل فيها (فلاناً) ، هذا كله به شرك[1] .

---

(1) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٤-١٤٦).

[٤٢] بَــابُ
مَـا جَـاءَ فِـيمَـنْ لَـمْ يَـقْـنَـعْ بِالـحَـلِفِ بِاللَّـهِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان الوعيد فيمن لم يقنع بالحلف بالله لأن ذلك يدل على عدم تعظيمه لله – عزَّ وجلَّ – ولأن القلب الممتلىء بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك، ولأن هذا ينافي كمال التوحيد لأن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله – سبحانه وتعالى– ولأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف ، والحلف بالله عبادة من العبادات والحلف بغير الله شرك ولذا حذر الشارع ونهى عن الحلف بغير الله ففي الحديث (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّـهِ ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقِّه على الله ، أو بالملوك ، أو بنعمة السلطان ،

(1) أبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في الصحيحة (٢٠٤٢) .

أو بالسيف ، أو بالكعبة ، أو بأبيه ، أو تربة أبيه ، أو نحو ذلك كان منهياً عن ذلك ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين[1] .

والحلف بغير الله قد يصبح شركاً أكبر إذا قام بقلب الحالف تعظيم من حلف به من المخلوقات مثل تعظيم الله – عزَّ وجلَّ – .

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء : (**فإن قام بقلبه تعظيمٌ لمن حلف به من المخلوقات مثل تعظيم الله ، فهو شركٌ أكبر ، فإن كان جاهلاً عُلِّم ، فإن أصرَّ فهو والعالم ابتداء سواء ، كل منهما يكون مشركاً شركاً أكبر**)[2] .

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – (١١/ ٥٠٦) .
(2) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٢٢٤) .

[٤٣] بَـــابُ
قَـوْلِ : مَاشَاءَ اللَّـهُ وَشِـئْتَ

من الشرك في الألفاظ قول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولـولا الله وأنت ، ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، وحسبي الله وأنت ، ونحو ذلك من الألفاظ التي تجري على ألسنة الناس ، وفيها تسوية بين الخالق والمخلوق وهذا قد يكون من الشرك الأكبر إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله ، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو شرك أصغر ، وقد ذكر بعض أهل العلم من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر ، ولا يجوز استعمال هذه الألفاظ ولا التهاون في النُّطق بها لأنها نوع من أنواع الشرك الأصغر إذ حرف الواو يقتضي التشريك فحين تقول جاء زيد وعمرو تكون قد سوَّيت بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم وهو المجيء ، لأن الواو وضعت لمطلق الجمع ، وهي لا تُفيد ترتيباً ولا تعقيباً ووجودها فيه تسوية بين الخالق والمخلوق ، ومعلومٌ أنَّ التسوية بين الخالق والمخلوق شرك ، والله – عزَّ وجلَّ – ذكر أنَّ من أسباب ضلال المشركين كونهم يُسوّون الأنداد برب العالمين قال تعالى حاكياً عنهم قولهم في النار

﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٦ – ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فسَّرها حبر هذه الأُمة وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس – رضي الله عنهما – بقوله: (الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يافلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لو لا الله وفلان، لا تجعل فيها (فلاناً)، هذا كله به شرك)[1].

وعنه رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ ماشاء الله وشئت، فقال: (**أجعلتني لله ندًّا ؟ قل ما شاء الله وحده**)[2].

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – مُعلِّقاً على هذا الحديث: (هذا مع أنَّ الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨]، فكيف بمن يقول أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا

(1) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٤-١٤٦).

(2) رواه ابن ماجه (٢١١٧)، والإمام أحمد (١/ ٢١٤)، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في الصحيحة (١٣٩).

من بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض ، أو يقول: والله وحياة فلان ، أو يقول : نذراً لله ولفلان ، أو أنا تائب لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلان ... ونحو ذلك ؟! فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ! ثم انظر أيُّهُما أفحشُ ، يتبيَّن لك أنَّ قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعلهُ لله ندًّا بها ، فهذا قد جعل من لا يُداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نِدًّا لربِّ العالمين)[1] .

وللوقاية من هذا النوع من الشرك وعدم الوقوع فيه هو التزام ما علَّمنا إيَّاه رسول الله ﷺ من استبدال الواو بـ (ثُمَّ) فنعدل عن الواو التي تقتضي تسوية المخلوق للخالق إلى (ثُمَّ) التي تقتضي الترتيب والتراخي فمثلاً إذا قلنا : ما شاء الله وشئت ، وعطفنا بالواو اقتضى ذلك التسوية بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق ، أمَّا إذا قلنا : ماشاء الله ثم شئت وعطفنا بـ (ثُمَّ) فإنَّه يقتضي تقديم مشيئة الله – عزَّ وجلَّ – وأنها فوق مشيئة المخلوق .

(1) الجواب الكافي للإمام ابن القيم – رحمه الله – ص (٣٢٧) .

فإذا عطفنا مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق - عزَّ وجلَّ - بـ (ثُمَّ) فرَّقنا بين المشيئتين، وقدَّمنا مشيئة الخالق - سبحانه وتعالى - على مشيئة المخلوق.

كذا الحوادث: نُسنِدها إلى الله - عزَّ وجلَّ - أولاً، ثم إلى المخلوق، فمثلاً إذا أردنا أن نقول: لولا وجود فلان لحصل كذا، نقول: لولا الله، ثم وجود فلان لحصل كذا، مع الاعتقاد بأن الأسباب ليست مستقلة بذاتها في التأثير وإنما يكون تأثيرها بقدرة الله ومشيئته.

[٤٤] بَـــابٌ
مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

الدَّهر: هو الزمان والوقت، **والسب**: هو الشتم والذم ونحو ذلك .

والدهر ليس من أسماء الله – عزَّ وجلَّ – كما توهم البعض .

ومعنى أنا الدهر في الحديث أي : مالكه ومدبره كما فسره بتقليب الليل والنهار .

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة لأن الساب مرتكب **أحد أمرين** : إما مسبة الله، أو الشرك ، فإن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله فقد سب الله – سبحانه وتعالى – ، ومن أضاف إلى الدهر فعلاً من الأفعال أو أمراً من الأمور فقد آذى الله تعالى ولا يضر الله شيئاً ، وفي الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** – رضي الله عنه – **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ ، **قَالَ** : (**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)[1] .

(1) البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) .

يقول العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – **وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :**

الأول : أن يقصد الخبر المحض دون اللوم ، فهذا جائز ، مثل أن يقول : تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده ، وما أشبه ذلك ، لأن الأعمال بالنيات ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر ، ومنه قول لوط – عليه الصلاة والسلام – : ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود : ٧٧] .

الثاني : أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل ، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يُقلب الأمور إلى الخير والشر فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً ، لأنه نسب الحوادث إلى غير الله ، وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً ، فهو كافر كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد ، فإنه كافر .

الثالث : أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل ، بل يعتقد أن الله هو الفاعل ، لكن يسبه ، لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده ، فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك ، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين لأن حقيقة سبه تعود إلى الله – سبحانه – ، لأن الله تعالى هو الذي

يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر ، فليس الدهر فاعلاً ، وليس هذا السب بكفر ، لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة"[1] .

ومسبة الدهر فيها مفاسد **منها**: سب من ليس أهلاً للسب ، فإن الدهر خلق مسخر ، **ومنها** أن سبه متضمن للشرك ، فإنما سبه لظنه أنه يضر وينفع ، وأنه مع ذلك ظالم ، **ومنها** أن السب إنما يقع على من فعل هذه الأفعال ، وربُّ الدهر هو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، والدهر ليس له من الأمر شيء ، فمسبته مسبة لله – عزَّ وجلَّ – .

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ١٥١) .

[٤٥] بَــابُ
التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ

هذا الباب في وسائل حفظ التوحيد وتحصيل كماله وصيانته وحمايته وسد الطرق الموصلة إلى الشرك وعدم القدح بما ينقصه، وهو من الأبواب المتعلقة بإفراد الرب - عزَّ وجلَّ - بالتعظيم وعدم تنقصه، وأن هذه الألفاظ لا تكون إلا من باب التعظيم وأي لفظ مقتضاه التعظيم فيجب أن لا يكون إلا لله، وأن الغلو في المخلوق وتعظيمه وتشبيهه بالخالق من وسائل الشرك .

وأن التَّسَمِّي بقاضي القضاة ونحوه فيه قدح في التوحيد من جهتين :

١- تنقص عظمة الله من ناحية تشبيه المخلوق بالخالق في الاسم والمكانة .

٢- تعظيم المخلوق مما قد يؤدي إلى الشرك به فصار وسيلة له .

وأراد المصنف - رحمه الله - بيان أن من تسمى بهذا الاسم فقد جعل نفسه شريكاً مع الله فيما لا يستحقه إلا الله لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله - سبحانه وتعالى - ، فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ ، وهو الذي له الحكم ، ويرجع إليه الأمر كله وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :**

(إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ : رَجُلٌ تَسَمَّى : مَلِكَ الْأَمْلَاكِ)[1]، زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي رِوَايَتِهِ لا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

أخنع : أي أذلّ ، والخُنُوع : الخُضوع والذُّل .

ومنه الدعاء في القنوت (**ونخنع لك**) أي نذل لك ونخضع .

قال الحافظ أبي العباس القرطبي - رحمه الله - في المفهم (وحاصل هذا الحديث أن المسمَّى بهذا الاسم قد انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق ، إذ لا يصدق هذا الاسمُ بالحقيقة إلا على الله تعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال ، والإخساس والاسترذال بها لم يعاقب به أحد من المخلوقين)[2].

---

(1) البخاري (٦٢٠٦) ، ومسلم (٢١٤٣) .

(2) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٤٥٥) .

[٤٦] بَــابُ

احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

الاحترام: معناه: التقدير والتوقير والتعظيم.

أراد المصنف -رحمه الله- بيان أن أسماء الله لا يُسمى بها غيره، وتُغيَّر لأجل تحقيق التوحيد من باب التعظيم، وبيان أن التَّسَمِّي بشيء من أسماء الله والتكني بها مما ينافي كمال التوحيد لأن فيه مشابهة لأسماء الله ويجب احترام أسماء الله تعالى وهو تعظيمها ووجوب تغيير الاسم لأجل احترام أسماء الله وذلك من تحقيق التوحيد، فلا ينبغي أن يستعمل لفظاً هو يليق بشأن الله تعالى في حق من هو مخلوق له ومحكوم عليه، كقولهم، رب العالمين، وأقضى القضاة، وأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأبي القضاء والقدر، وأبي الحكم والأمر، وما في معنى ذلك، كالرازق، والرب، والمعبود، والعلة في المنع من ذلك ظاهرة، وهي أن في ذلك من تعظيم المخلوق وتشبيهه بالرب -عزَّ وجلَّ- وهذا قد يؤدي إلى الشرك بالمخلوق وعبادته وهذا ينقض التوحيد من أصله، وكذلك يلزم منه القدح في عظمة الله وجعل المخلوق بمنزلة الخالق وأنه ليس بأرفع وأعظم من خلقه.

وأسماء الله تنقسم إلى قسمين :

الأول : ما لا يصح إلا لله ، فهذا لا يُسمَّى به غيره ، وإن سُمِّي وجب تغييره ، مثل : الله ، الرحمن ، رب العالمين ، وما أشبه ذلك .

الثاني : ما يصح أن يوصف به غير الله ، مثل : الرحيم ، الرؤوف ، السميع ، البصير ، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به ، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض[1] .

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ١٦٨) .

[٤٧] بَـــابُ
مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن الاستهزاء يعد مناقضاً للتوحيد من أصله ، حيث لا يجتمع في قلب مؤمن تعظيم الله مع الاستخفاف به ، لذلك كان الهزل والاستهزاء أحد نواقض الإسلام ، وكذلك بيان أن من تجرَّأ بكلام فيه استهزاء من دين الله أو تنقصٌ له ، أو استهزاءٌ به أو تنقص لرسوله ﷺ أو استهزأ به كفر بإجماع المسلمين ، ولهذا أجمع العلماء على كُفر من فعل شيئاً من ذلك ، فمن استهزأ بالله ، أو بكتابه ، أو برسوله ، أو بدينه كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله – (فإنَّ الاستهزاء بالله ورسوله كفرٌ مخرجٌ عن الدين ، لأنَّ أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ، ورسوله ، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة)[1] .

(1) تيسير الكريم الرحمن للعلامة ابن سعدي – رحمه الله – (٣/ ٢٥٩) .

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الاستهزاء بالله، أو برسوله، أو بكتابه، منافٍ للتوحيد وهو كفرٌ بالإجماع .

يقول العلامة ابن عثيمين - رحمه الله - ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة .

كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به ؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به .

والكفر كفران : كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جداً، ورب كلمة أو قعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله - عزَّ وجلَّ - لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار .

فمن استهزأ بالصلاة ولو نافلة، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج، فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً : إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال : إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفرٌ مخرجٌ عن الملة، لأن الرب - عزَّ وجلَّ - كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها .

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه : هل تقبل توبته؟ على قولين :

القول الأول : أنها لا تقبل ، وهو المشهور عند الحنابلة ، بل يقتل كافراً ، ولا يُصلى عليه ، ولا يُدعى له بالرحمة ، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين ، ولو قال : إنه تاب أو إنه أخطأ ، لأنهم يقولون : إنَّ هذه الردة أمرها عظيم وكبير ولا تنفع فيها التوبة.

القول الثاني : وقال بعض أهل العلم : إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله ، وأقر على نفسه بالخطأ ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم ، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة ، كقوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، ومن الكفار من يسبون الله ، ومع ذلك تقبل توبتهم .

وهذا هو الصحيح ، إلا أنَّ سابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله ، فإنها تقبل توبته ولا يقتل ، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعاً ، أما سابَّ الرسول ﷺ **فإنه يتعلق به أمران** :

الأول : أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب .

الثاني : أمر شخصي لكونه من المسلمين ، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم ، فإذا قتل غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين .

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد ألف كتاباً في ذلك سماه : (**الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول**) ، أو (**الصارم المسلول على شاتم الرسول**) ، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ ، وكذا لو قذفه ، فإنه يقتل ولا يجلد .

فإن قيل : احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف ؟

أجيب : إنه لا يوجب التوقف ، لأن المفسدة حصلت بالسب وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم ، والأصل بقاؤه .

فإن قيل : أليس الغالب أنَّ الرسول ﷺ عفا عمن سبه ؟

أجيب : بلى ، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف ، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه ، قال ابن القيم : إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط)[1] .

(1) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ١٧٣ – ١٧٥) .

[٤٨] بَـابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

مناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه ففيه نوع من الإشراك بالربوبية ، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل ، لكن لأنه أهل لذلك ففيه نوع من التعالي والترفع في جانب العبودية ، فمن كمال التوحيد تقييد نعم الله بشكره والثناء عليه بها ، وأن إنكار النعم وجحودها من الكفر الذي ينافي كمال التوحيد ، وتضمَّنت هذه الآية الكريمة جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا وظنهم أن الآخره كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد وغيرها من النعم كما أنعم عليهم في الدنيا وبين – عزَّ وجلَّ – كذبهم واغترارهم فيما ادعوه في كثير من الآيات كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ – ٥٦] ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ – ١٨٣] ، وقوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] ، وقوله : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : ٢] ، وغيرها من الآيات .

وشكر النعمة له ثلاثة أركان :

١- الإعتراف بها في القلب .

٢- الثناء على الله باللسان .

٣- العمل بالجوارح بما يرضي المنعم .

[٤٩] بَـــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف]

أراد المصنف – رحمه الله – أن يبين بأن الشرك كما يكون في التوجه لغير الله – سبحانه وتعالى – في أي نوع من أنواع الشرك يكون كذلك بالأقوال والتسمية ، فلو سُمِّي إنسان عبد العزى أو عبد اللات فيثبت العبودية إلى هذه الأصنام والأوثان وغيرها ، ومن ذلك نسبة العبودية إلى الأشخاص ، فهذا نوع من الشرك بالله – سبحانه وتعالى – وهذا الشرك بالله – عزَّ وجلَّ – إما أن يكون شركاً أكبر إذا اعتقد عبودية هذا الإنسان لذلك المعبود ، فهذا شرك صريح في عبادة الله – عزَّ وجلَّ – ومخرج من الملة ومحبط للأعمال ، أما إذا كان في التسمية فقط دون أن يكون معتقداً في عبوديته له وإنما مجرد اسم ، فهذا شرك في الطاعة بمعنى أنه شرك أصغر .

فمن أنعم الله عليهم بالأولاد ، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم ، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم ، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه ، وأن لا يُعَبِّدوا أولادهم لغير الله ، أو يضيفوا النعم لغير الله ، فإن ذلك كفران للنعم منافٍ للتوحيد .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩ – ١٩٠] فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث، ففعلا، فإنَّ الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك[1].

(1) روضة المحبين للإمام ابن القيم – رحمه الله – (ص ٣٠٨).

[٥٠] بَــابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]

توحيد الأسماء والصفات من أجلِّ أبواب التوحيد وأشرفها وأعظمها قدراً، لتعلقه بذات الرب - سبحانه وتعالى - وأسمائه وصفاته وشرف العلم بشرف المعلوم، ويُعرَّف هذا النوع من أنواع التوحيد بأنه: إفراد الله - سبحانه وتعالى - بما سمَّى به نفسه، ووصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، نفياً وإثباتاً، فيثبتُ له ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - الدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب

الصابرين ، حليم يحب أهل الحلم ، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح : خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه .

وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح ، فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح ، وقد وصفها الله – سبحانه – بأنها حسنى كلها، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال ، ولهذا لما سمع بعض العرب قارئاً يقرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم) ، قال : ليس هذا كلام الله تعالى ، فقال القارئ : أتُكَذِّبُ بكلام الله تعالى فقال : لا ولكن ليس هذا بكلام الله ، فعاد إلى حفظه وقرأ : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فقال الأعرابي : صدقت عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع ، ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب ، أو بالعكس ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه .

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) ، فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين ، المائل عن الحق إلى الباطل ، قال ابن سكيت : الملحد المائل عن الحق ، المدخل فيه ما ليس منه ، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك ، وقوله تعالى :

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف : ٢٧] أي من تعدل وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره ، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه .

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع :

أحدها : أن يُسمِّي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإِلَه ، والعُزَّى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً ، وهذا إلحاد حقيقة ، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أباً ، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته ، أو علة فاعله بالطبع ونحو ذلك .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إنه فقير ، وقولهم : إنه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ، ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ، ويقولون : لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة ، وهو يقابل إلحاد المشركين ، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم ، وهؤلاء سلبوه

صفات كماله وجحدوها وعطلوها ، فكلاهما ملحد في أسمائه ، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو يستكثر .

وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه ، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً ، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة ، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها ، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه ، فجمعهم الإلحاد ، وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ، ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عما أُنزلت عليه لفظاً ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان إثباتهم بريأً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل ، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً ، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً ، وأهل السُّنة وسط في النحل ، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل ، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل للوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله ، إنه قريب مجيب[1] .

---

(1) بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن القيم – رحمه الله – (١/ ٤٣١ – ٤٣٣) .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في النونية :

أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِي

إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ ... كُفْرٌ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ كُفْرَانِ

وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بِالْـ ... إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

فَالمُلْحِدُون إِذاً ثَلَاثُ طَوَائِفٍ ... فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمنِ

الْمُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سَمَّوا بِهَا ... أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِي

هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بِالخَلَّاقِ عَكْـ ... ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ ... إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ

أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ اللَّهِ ذِي السُّلْطَانِ

وَالْمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكاً مِنْهُمُ ... هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْمَ بِالأَوْثَانِ

وَلِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ ... لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

وَالْمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ ... يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلَا بُرْهَانِ

مَا ثَمَّ غَيْرُ الإِسْمِ أَوَّلَهُ بِمَا ... يَنْفِي الحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلَانِ

فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ ... ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلُطْفِ بَيَانِ

عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا ... وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالكُفْرَانِ

لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالْـ ... أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ

فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ ... هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِي

فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى الْمَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ ... لَا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ

أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ... عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ

فَإِذَا تَضَافَرَتِ الأَدِلَّةُ كَثْرَةً ... وَغُلِبْتَ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بِبَيَانِ

فَعَلَيْكَ حِينَئِذٍ بِقَانُونٍ وَضَعْـ ... ـنَاهُ لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ

وَلِكُلِّ نَصٍّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَوْ ... وَلَ بِالْمَجَازِ وَلَا بِمَعْنًى ثَانِي

قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الْـ ... أَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ

مَا ثَمَّ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعٍ ... مُتَقَابِلَاتٍ كُلُّهَا بِوِزَانِ

إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُهُ أَوْ تُلْغِيَ الْـ ... مَعْقُولَ مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ

العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ ... تُبْطِلْهُ يَبْطُلْ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي

فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلْمَعْقُولِ وَالْـ ... إِلْغَاءُ لِلْمَنْقُولِ ذِي البُرْهَانِ

إِعْمَالُهُ يُفْضِي إِلَى إِلْغَائِهِ ... فَاهْجُرْهُ هَجْرَ التَّرْكِ وَالنِّسْيَانِ

وَاللَّهِ لَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ إِنَّنَا ... وَهُمُ لَدَى الرَّحْمنِ مُخْتَصِمَانِ

وَهُنَاكَ يُخْزَى المُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الْـ ... إِلْحَادَ يُجْزَى ثَمَّ بِالغُفْرَانِ

فَاصْبِرْ قَلِيلاً إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ يَا مُثْبِتَ الأَوْصَافِ لِلرَّحْمنِ

فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ـنِي الغَيْرُ وِزْرَ الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ

فَاللَّهُ سَائِلُنَا وَسَائِلُهُمْ عَنِ الْـ إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانِ

فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَاباً كَافِياً عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ

هَذَا وَثَالِثُهُمْ فَنَافِيهَا وَنَا فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

ذَا جَاحِدُ الرَّحْمنِ رَأْساً لَمْ يُقِرْ رَ بِخَالِقٍ أَبَداً وَلَا رَحْمَنِ

هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ فَاحْذَرْهُ لَعَلْ لَ اللَّهَ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

وَتَفُوزَ بِالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْـ ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الْحُسْبَانِ

أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الْـ ـغُرَبَاءُ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ

مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ وَمُحَارِبٍ بِالبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمْ وَمَا ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمنِ

كَلَّا وَلَا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ فِي اللَّهِ لَا بِيَدٍ وَلَا بِلِسَانِ

مَنَّتْكَ وَاللَّهِ الـمُحَالَ النَّفْسُ فَاسْـ   ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

لَـوْ كُنْـتَ وَارِثَـهُ لآذَاكَ الأُلَـى   وَرِثُـوا عِـدَاهُ بِـسَائِرِ الأَلْـوَانِ

[٥١] بَـــابٌ
لَا يُقَالُ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

لما ذكر المصنف – رحمه الله – في الباب الذي قبل هـذا الباب الأسماء الحسنى وإثباتها لله – عزَّ وجلَّ – على وجه الكمال اللائق بالله – عزَّ وجلَّ – ذكر في هذا الباب سلامة صفاته – عزَّ وجلَّ – من كـل نقـص وهـذا يتضمن كمالها إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها فإذا قال المسلم : السلام عليكم ، فهو دعاء للمُسَلَّم عليه وطلب له أن يسلم من الشر والآفات والمهالك والله هو المطلوب منه ، لا المطلوب له ، وهو المدعو لا المدعو له ، وهو الغني له ما في السماوات وما في الأرض ، وهو السالم من كل نقص وكل سلامة ورحمة له ومنه وهو ما لكها ومعطيها ، استحال أن يسلم عليه سبحانه ، بل هو المُسَلِّم على عباده فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سواه ولا نعبد إلا إياه ، ولا ندعوا إلا إياه .

وفي الحديث عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ قالَ: كُنَّا إِذا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ في الصَّلاةِ قُلْنا: السَّلامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبادِهِ، السَّلامُ عَلَى

فُلانٍ وفُلانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: (لاَ تَقُولُوا: السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ)[1] .

وقول المصنف – رحمه الله – لا يقال السلام على الله لأن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه – عزَّ وجلَّ – فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك إذ لا يُدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به .

والله – سبحانه وتعالى – منزه عن صفات النقص فإذا دعوت الله أن يسلم نفسه فقد خالفت الحقيقة لأن الله يُدعى ولا يُدعى له ، فهو غني عنا لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور ، سميع ، عليم ، وغير ذلك ، ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – **ما يجري صفة أو خبراً عن الرب تعالى أقسام :**

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات كقولك : ذات ، وموجود .

الثاني : ما يرجع إلى صفاته ونعوته كالعليم ، والقدير .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله كالخالق ، والرازق .

الرابع : التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً كالقدوس ، والسلام.

---

(1) البخاري (٨٣٥) ، ومسلم (٤٠٢) .

الخامس : ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف لا تختص بصفة معينة نحو: المجيد ، العظيم ، الصمد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو : الغني الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن ، فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، وله ثناء من غناه وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، فتأمله فإنه من أشرف المعارف[1] .

---

(1) بدائع الفوائد للإمام ابن القيم – رحمه الله – (١/ ١٥٩) .

[٥٢] بَـــابُ
قَـوْلِ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن تعليق الدعاء بالمشيئة ينافي كمال التوحيد لأنه سوء أدب مع الله – عزَّ وجلَّ – حيث يوهم دعوى الاستغناء عن الخالق – سبحانه وتعالى – وأن تعليق الدعاء بالمشيئة محظور من أوجه :

منها : أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء .

ومنها : أن قول القائل إن شئت كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاؤه لكونه عظيماً عنده والله – سبحانه وتعالى – لا يتعاظمه شيء ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس :٨٢]، وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ)[1] .

ولمسلم : (وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)[2].

(1) البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) .

(2) مسلم (٢٦٧٩) .

ومنها : أنه يشعر أن الداعي مستغنٍ عن الله فكأنه يقول : إن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني ، بل الكل محتاج إلى الله – عزَّ وجلَّ – والكل فقير إليه ، قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر :١٥-١٧]، بل ينبغي أن يدعو وهو يشعر أنه مفتقر إلى الله تعالى غاية الإفتقار خضوعاً لله وخشوعاً وانكساراً بين يديه .

[٥٣] بَــابُ
لَا يَـقُـولُ : عَـبْـدِي وَأَمَـتِي

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن الإنسان مربوب لله تعالى متعبد بإخلاص التوحيد لله – عزَّ وجلَّ – منهي عن المضاهاة والشرك حتى في الألفاظ ، وتحقيقاً للتوحيد وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ وسداً لذرائع الشرك والله تعالى رب العباد جميعهم فإذا أُطلق على غيره شاركه في الاسم فنهى عن ذلك وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى وإنما المعنى أن هذا مالك له فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار فنهى عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق ، وفي الحديث : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمْ رَبَّكَ ، وَضِّئْ رَبَّكَ ، اسْقِ رَبَّكَ . وَلْيَقُلْ : سَيِّدِي مَوْلاَيَ . وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي ، أَمَتِي ، وَلْيَقُلْ : فَتَايَ ، وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي)[1] ، وأرشدهم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ فقال : (وَلْيَقُلْ : سَيِّدِي ، مَوْلاَيَ) ، وكذا قوله : (وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي أَمَتِي) ، لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله ، قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي

(1) البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم :٩٣-٩٥]، فمعنى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى وأدباً وتحقيقاً للتوحيد وأرشدهم إلى ما ينبغي بقوله : (وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) وهذا من باب حماية التوحيد .

[٥٤] بَــابٌ
لَا يُـــرَدُّ مَــنْ سَــأَلَ بِاللَّــهِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن من سأل بالله لا يُرد إعظاماً وإجلالاً لله تعالى أن يُسأل به في شيء ولا يُجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه لأن من منع من سأل بالله دليل على عدم إعظامه وإجلاله لله – عزَّ وجلَّ – فإجابته من تعظيم هذا العظيم ، لكن لو سأل إثماً أو كان في إجابته ضرر على المسؤول ، فإنه لا يُجاب .

وفي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَن صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)[1] .

(١) أبو داود (١٦٧٢) ، والنسائي (٢٥٦٥) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع (٦٠٢١) .

[٥٥] بَـــابٌ
لَا يُـسْـأَلُ بِـوَجْـهِ اللَّـهِ إِلَّا الْـجَـنَّـةُ

لما كان الباب الذي قبله خطاب للمسؤول وأنه لا يُرد من سأل بالله إعظاماً وإجلالاً للَّـه تعالى ذكر في هذا الباب خطاب للسائل وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته وأن لا يسأل شيئاً من المطالب الدنيوية بوجه الله بل لا يُسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم ورضا رب العالمين والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه فهذا هو المطلب الأسمى الذي يُسأل بوجه الله ، وأما المطالب الدنيوية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه ، فإنه لا يسأل بوجهه إجلالاً لله وإكراماً وإعظاماً له أن يسأل بوجهه العظيم ما هو حقير لديه من حوائج الدنيا .

[٥٦] بَـــابُ
مَا جَـاءَ فِي الـ (لَـوْ)

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أنَّ من كمال التوحيد الإستسلام للقضاء والقدر رضاً بالله ربًّا والصبر على أقدار الله – عزَّ وجلَّ – والإسترجاع عند المصيبة والحذر من التسخط والألفاظ التي لا تجدي وقول (لو) ، ولم يجزم المصنف – رحمه الله – بشيء لأن (لو) **تستعمل على عدة أوجه :**

الوجه الأول : أن تستعمل في الاعتراض على الشرع ، وهذا مُحَرَّم قال الله تعالى : ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ ﴾ ، في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبيّ في نحو ثلث الجيش ، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ وقالوا : لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا ، فرأينا خير من شرع محمد ، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر .

الثاني : أن تستعمل في الاعتراض على القدر ، وهذا محرم أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ

﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضاً، لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهيٌّ عنه، لأن الندم يكسب النفس حزناً وإنقباضاً، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ (**اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**)[1].

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية، كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب المتمنى إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وفي (**الصحيح عن النبي ﷺ في النفر**

(١) مسلم (٢٦٦٤).

الأربعة قال أحدهم : (لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ) فهذا تمنى خيراً ، وقال الثاني : (لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ) ، فهذا تمنى شراً ، فقال النبي ﷺ في الأول: (فَهُوَ بِنِيَّتِهِ ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ) ، وقال في الثاني : (فَهُوَ بِنِيَّتِهِ ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ)[1] .

السادس : أن تستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز ، مثل : لو حضرت الدرس لاستفدت ، ومنه قوله ﷺ : **(لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم)** ، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأ حل ، وهذا هو الظاهر لي ، وبعضهم قال : إنه من باب التمني ، كأنه قال : ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي ، لكن الظاهر : أنه خبر لما رأى من أصحابه ، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئاً قدر الله خلافه[2] .

(1) الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٧) ، وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – صحيح الترغيب (١٦) .
(2) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ٢٥٠ – ٢٥١) .

[٥٧] بَابُ
النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

أراد المصنف -رحمه الله- بيان أنَّ الرِّيح مُسخرة بأمر الله -عزَّ وجلَّ- فالله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يُرسلها ويُصرِّفها حيث يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فإنَّ الرِّيح مُصرَّفة مُدبرة بتدبير الله وتسخيره فالساب لها يقع سبه على

من صرَّفها لكونها إنما تهب عن إيجاد الله لها وأمره إياها ، فلا تأثير لها إلا بأمر الله فمسبتها مسبة لله تعالى واعتراض عليه وهذا قدح في التوحيد وهذا نظير ما سبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر وهذا خاص بالرِّيح ، ولكن إذا كانت الرِّيح مزعجة ، فقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذٍ كما في الحديث : (**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وخَيْرِ مَا فِيهَا، وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشَرِّ مَا فِيهَا وشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**)[1] ، لأن الريح نفسها فيها خير وشر فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط وقد تحمل خير مثل تلقيح الثمار وقد تحمل شر كإزالة الثمار ، وقد تُؤمر بخير مثل إثارة السحاب وسوقه حيث شاء الله ، وقد تُؤمر بشر مثل الإهلاك والتدمير ، وفي صحيح مسلم **عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ ، قَالَ :(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ" ، قَالَتْ : وَإِذَا تَخَيَّلَتِ**

(١) الترمذي (٢٢٥٢) ، وصححه الإمام الألباني - رحمه الله - في الصحيحة (٢٧٥٦) .

السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُـهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِـي وَجْهِهِ . قَـالَـتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ ، فَقَـالَ : " لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَـا قَالَ قَوْمُ عَـادٍ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ "[1] .

---

(1) مسلم(٨٩٩) .

[٥٨] بَــابُ

قَـوْلِ اللَّـهِ تَـعَـالَـى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

أراد المصنف –رحمه الله– التنبيه على وجوب حسن الظن بالله تعالى وأنه من واجبات الإيمان، وأن سُوء الظن بالله تعالى ينافي التوحيد، وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر به وما وعد به من نصر دينه وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان لأن مبنى حسن الظن العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة التوكل عليه فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله تعالى، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد لأنها سُوء ظن بالله ونفي لكماله وتكذيب لخبره وشك في وعده ولذلك ذمَّ الله تعالى من أساءَ الظن به، فمن قنط من رحمته ظن به ظن السوء، ومن جوَّز عليه أن يعذب المحسن أو يُسوِّي بينه وبين عدوه فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يترك خلقه سدى عن الأمر

والنهي فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه أخبر عن نفسه سبحانه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه ليس فوق سماواته مستوٍ على عرشه فقد ظن به ظن السوء ، فكل هؤلاء من الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية ، وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله أو عطله من ذلك أو ظن أن له شريكاً أو صاحبة أو ولداً أو شفيعاً بدون إذنه أو أن بينه وبين خلقه وسائط ترفع الحوائج إليهم أو إن ما عنده ينال بالمعصية كما ينال بالطاعة ، أو أنه إذا ترك المرء لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه أو أنه يعاقب بمحض المشيئة بغير سبب من العبد ، أو أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة أنه يخيبه فقد ظن به ظن السوء قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦].

[٥٩] بَـابُ
مَـا جَـاءَ فِي مُـنْـكِـرِي الْـقَـدَرِ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان ركن عظيم من أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان إلا بها ، ألا وهو الإيمان بالقضاء والقدر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، **والقدر** : هو ما قدَّره الله – عزَّ وجلَّ – وكتبه على البشر قبل خلق السماوات والأرض ، **والقضاء** تنفيذ ذلك القدر ، فلو آمن المرء بأركان الإيمان الخمسة التي هي : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولم يؤمن بالقضاء والقدر فلا إيمان له ، لأنه ركن فلا بدَّ من تحقيق هذه الأركان الستة ، ولذلك جاء في (صحيح مسلم) من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في قصة مجيء جبريل – عليه السلام – إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وفيه : قَالَ: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ**»، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1] .

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن الإيمان بأربعة أمور ، وهي التي يسميها العلماء مراتب القدر :

(1) مسلم (٨) .

المرتبة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى علم بكل شيء جملةً وتفصيلاً أزلاً وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده.

المرتبة الثانية : الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج :٧٠].

وفي صحيح مسلم -عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (**كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**)[1].

المرتبة الثالثة : الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى، سواء كانت مما يتعلق بفعله أو مما يتعلق بفعل المخلوقين، قال الله تعالى فيما يتعلقُ بفعله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص :٦٨] وقال: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم :٢٧]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران :٦]، وقال تعالى فيما يتعلقُ بفعل المخلوقين : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢].

المرتبة الرابعة : الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقه لله تعالى بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر :٦٢] وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان :٢] ، وقال عن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).

قال الإمام القحطاني – رحمه الله – في نونيته :

رُكْنُ الدِّيَانَةِ أَنْ تُصَدِّقَ بِالْقَضَا

لَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ بِلَا أَرْكَانِ

اللَّهُ قَدْ عَلِمَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَا

وَهُمَا وَمَنْزِلَتَاهُمَا ضِدَّانِ

لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ لِنَفْسِهِ

رَشَداً وَلَا يَقْدِرْ عَلَى خِذْلَانِ

سُبْحَانَ مَنْ يُجْرِي الْأُمُورَ بِحِكْمَةٍ

فِي الْخَلْقِ بِالْأَرْزَاقِ وَالْحِرْمَانِ

نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ بِسَابِقِ عِلْمِهِ

فِي خَلْقِهِ عَدْلاً بِلَا عُدْوَانِ

وَالْكُلُّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُسَطَّرٌ

مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نُقْصَانِ

[٦٠] بَـــابُ
مَـا جَـاءَ فِي الْـمُـصَـوِّرِيـنَ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان ما جاء من الوعيد الشديد في المصورين ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أنَّ في التصوير مضاهاة لخلق الله ، فمن فعل ذلك فهو من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لأن الله تعالى له الخلق والأمر فهو ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه وهو الذي يصور جميع المخلوقات ويجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [الأعراف : ١١] وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر :٢٤] ، فالمصور لـمَّا صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مشابهاً لخلق الله فصار ما صوره عذاباً له يوم القيامة وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فكان أشد الناس عذاباً لأن ذنبه من أكبر الذنوب ، فتصوير الصور الحيوانية تشبه بخلق الله وكذب وافتراء على الله وتمويه وتزوير فلذلك زجر الشرع عنه فعمَّ بالذمِّ والتقبيح كلَّ ما تعاطى تصوير شيءٍ مما خلقه الله تعالى وقد دلت

الترجمة على أن الذمَّ والوعيد إنما عُلِّق بالمصورين من حيث تشبَّهوا بالله تعالى في خلقه ، وتعاطوا مشاركته فيما انفرد الله تعالى به من الخلق والاختراع وأُلزموا يوم القيامة بأن ينفخوا في هذه الصور التي صوروها في الدنيا بأن ينفخوا فيها الروح ولا يقدرون على ذلك ، وهذا فيه إظهار لعجزهم ومبالغة في توبيخهم وإظهار لقبيح فعلهم واستثنى العلماء من الصور ما ليس فيه روح كالأشجار والأنهار والجبال وغير ذلك فهذا لاخلاف في جوازه ، ومما جاء من الوعيد في المصورين ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ شَعِيرَةً)[1] ، وَعَنْ عائِشَةَ – رضي الله عنها – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ)[2] ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي اللَّهُ عنهُمَا – : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا ، نَفْساً فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ)[3] ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللَّهُ

(1) البخاري (٧٥٥٩) ، ومسلم (٢١١١) .
(2) البخاري (٥٩٥٤) ، ومسلم (٢١٠٧) .
(3) البخاري (٢٢٢٥) ، ومسلم (٢١١٠) .

عنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**)[1] ، وَعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ ، قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ (**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**)[2] .

(1) البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).
(2) مسلم (٩٦٩).

[٦١] بَــابُ
مَـا جَـاءَ فِي كَـثْـرَةِ الْحَلِفِ

أراد المصنف - رحمه الله - بيان النهي عن كثرة الحلف والوعيد لفاعليه لما يترتب عليه من منافاة كمال التوحيد الواجب فإنَّ أصل اليمين إنما شُرعت تأكيداً للأمر المحلوف عليه، وتعظيماً للخالق - عزَّ وجلَّ -، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك ففي الحديث، (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)[1]، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقاً، ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم أسماء الله عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد، فكثرة الحلف بالله تدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله وتعظيم الله من تمام التوحيد، والمراد بعدم كثرة الحلف ما كان معقوداً ومقصوداً، أما ما يجري على اللسان بلا قصد مثل، لا والله، وبلى والله في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه، لقوله تعالى:

(1) أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الإمام الألباني - رحمه الله - في الصحيحة (٢٠٤٢).

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

[٦٢] بَــابُ
مَـا جَـاءَ فِي ذِمَّــةِ اللَّـهِ وَذِمَّــةِ نَـبِيِّـهِ ﷺ

أراد المصنف – رحمه الله – بيان أن نكث العهد دليل على عدم تعظيم الله فهو قادح في التوحيد، وكذلك بيان ما يجب من التأدب في حق الله في الألفاظ، وأن التأدب مع الرب في الألفاظ من كمال التوحيد، وأن ترك ذلك ينافي كمال التوحيد الواجب، والمقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يُخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله ﷺ فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه ﷺ، وتركاً لتعظيم الله – عزَّ وجلَّ – وارتكاباً لأكبر المفسدتين كما نبه النبي ﷺ في الحديث: عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ

ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[1].

والذمة: العهد وسُمي بذلك، لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدَّين بدينه في ذمته، والله – سبحانه وتعالى – له عهد على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

(1) مسلم (١٧٣١).

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١]، وفي الصحيحين **عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رضي الله عنه - قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ. قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وما حقُّ العبادِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - (أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: (لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا)**[1]، وللنبي ﷺ عهد على أمته أن يتبعوه وأن لا يبتدعوا في شريعته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وللأمة عليه حق وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئاً، وقد أخبر النبي ﷺ أنه قال **(إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)**[2].

---

(1) البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(2) مسلم (١٨٤٤).

[٦٣] بَـــابُ
مَـا جَـاءَ فِي الإِقْـسَـامِ عَـلَى اللَّهِ

الإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ : أن تحلف على الله أن يفعل كذا ، أو تحلف عليه أن لا يفعل كذا ، مثل : والله ليفعلن الله كذا ، أو والله لا يفعل الله كذا ، وحكمه التحريم إذا كان على جهة التألي والحجر على الله والقطع بحصول المقسم على حصوله ، وهذا النوع ينافي التوحيد لأنه سوء أدب مع الله وتحجر لفضله وإساءت الظن به ، وكل هذا ينافي كمال التوحيد ، وربما ينافي أصل التوحيد ، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقُّصاً في حقه ، وفي الحديث : **عَنْ جُنْدَبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ (أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)**[1] ، وأما إذا كان على جهة حسن الظن بالله فهو جائز لقوله ﷺ : **(إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)**[2].

(1) مسلم (٢٦٢١).

(2) البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام :

الأول : أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات ، فهذا لا بأس به ، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله ، مثل : والله ليُشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة ، ومثل : والله لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني : أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه ، فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الرُّبَيِّع بنت النضر عمة أنس بن مالك - رضي الله عنهما - ، حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص ، فعرضوا عليهم الصلح ، فأبوا ، فقام أنس بن النضر ، فقال : أتُكسر ثنية الرُّبَيِّع ؟ والله يارسول الله لا تُكسر ثنية الرُّبَيِّع ، وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي ، فقال النبي ﷺ (**ياأنس ! كتاب الله القصاص**) ، يعني : السن بالسن ، قال : والله لا تُكسر ثنية الرُّبَيِّع وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تُكسر ولو بذل كل غالي ورخيص أقسم على ذلك ، فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا ، فقال النبي ﷺ (**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**)[1] ، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تُكسر

(1) البخاري (٢٧٠٣) ، ومسلم (١٦٧٥) .

ثنية الرُّبَيِّع ، فألقى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص ، فعفوا وأخذوا الأرش .

فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله ، وأن الله أبر قسمه وليَّن هذه القلوب ، وكيف لا وهو الذي قال : بأنه يجد ريح الجنة دون أحد ، ولما استشهد وُجد به بضعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح ، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه ، وهي الرُّبَيِّع هذه ، رضي الله عن الجميع وعنا معهم .

ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ : (**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ**)[1] .

الثالث : أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس ، وتحجّر فضل الله – عزَّ وجلَّ – وسوء الظن به تعالى ، فهذا محرم ، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المُقسِم ، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله[2] .

---

(1) مسلم (٢٦٢٢) .

(2) القول المفيد للعلامة ابن عثيمين – رحمه الله – (٢/ ٣٦٥–٣٦٦) .

[٦٤] بَابٌ
لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

استشفع بالشيء : أي : جعله شافعاً له ، **والشفاعة** : هي التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه ، ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله - عزَّ وجلَّ - لأنه جعل مرتبة الله - عزَّ وجلَّ - أدنى من مرتبة المشفوع إليه إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده ، بل يأمره أمراً والله - عزَّ وجلَّ - لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد ، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً ، فإن الله - عزَّ وجلَّ - أعظم شأناً من أن يشفع عند أحد فالكل خلقه وعبيده ، فالله - عزَّ وجلَّ - لا يشفع لمخلوق عند مخلوق فهو رب الجميع ومالكهم ، ولأن طلب الاستشفاع بالله على خلقه فيه سوء أدب مع الله - عزَّ وجلَّ - فيتعين تركه فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه وكلهم يخافونه ، فكيف يعكس الأمر فيُجعل هو الشافع وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلت له جميع الكائنات والأرض والسماوات ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الروم : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

أما الاستشفاع بالرسول ﷺ وهو طلب دعائه فهو جائز في حياته، وأما بعد وفاته فلا يجوز ولهذا لما حصل الجدبُ في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ)[1].

(1) البخاري (١٠١٠).

[٦٥] بَـابُ
مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

قال المصنف – رحمه الله – في ترجمة الباب الحادي والعشرين باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسَدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك ، فتلك الترجمة أعم وأبلغ في التحذير في عدم المقاربة ، وهذه الترجمة أخص ، فهناك ترجم على حماية جناب التوحيد ، **والجناب في اللغة الناحية** وقال هنا حمى التوحيد ، فهذا اللفظ أخص وذاك أعم في التحذير في عدم المقاربة ، وقال هناك وسده كل طريق يوصل إلى الشرك وقال هنا وسده طرق الشرك ، وهذا اللفظ أخص من هناك فتأمله فإنه ظاهر للمتأمل ، وهذا من دقته وفطنته – رحمه الله – فكأنه أمر بحماية نواحي الحمى وحذر قربانها في تلك الترجمة ثم خصص بالحض على حماية الحمى نفسه الذي حميت النواحي لأجله ، فكيف إذا وصل إلى الحمى المحذور .

والمصطفى ﷺ قد بالغ في حماية التوحيد في الأقوال والأفعال وحذَّر أمته من كل ما يبطله أو يقدح فيه أو ينقصه حتى قال (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**) ، وقال (**إنه لا يُستغاثُ بي وإنما يُستغاثُ بالله**) ، ولما

قال له رجل (ما شاء الله وشئت) غضب وقال للرجل (أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده) ، وقال ﷺ (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ) ، وقال ﷺ (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ) ، وقال ﷺ (مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ) ، ولما خاطبوه بالسيادة أَنْتَ سَيِّدُنَا ، فَقَالَ : (السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) . قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا ، فَقَالَ : (قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ)[1] ، خوفاً على أمته من الوقوع في الضلال وأدباً مع ربه الكبير المتعال فصلوات الله وسلامه عليه ، نشهد بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي ﷺ حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه لأنه أعظم الذنوب وأكبرها والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد ، فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم ، فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة فحماه النبي ﷺ حماية تامة

(1) رواه أحمد (٤/ ٢٤) ، وأبو داود (٤٨٠٦) وصححه الإمام الألباني – رحمه الله – في (مشكاة المصابيح) (٤٩٠٠) .

محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر ، وهذا معنى الباب الذي ذكره المصنف – رحمه الله – لأن التوحيد لا يتم ولا يُحفظ ويُحصن إلا بإجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك ، والفرق بين الباب الحادي والعشرين وهذا الباب أنَّ الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولايتم التوحيد إلا بتركه ولذلك نهاهم النبي ﷺ أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، والسيد سيادة عامة مطلقة غير مضافة فالله – عزَّ وجلَّ – له السيادة المطلقة، والسيد من أسماء الله تعالى وهي من معاني الصمد كما فسر ابن عباس – رضي الله عنهما – الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده وما أشبه ذلك ، فالسيادة المطلقة لله – عزَّ وجلَّ – ولكن السيد المضاف يكون سيداً باعتبار المضاف إليه مثل سيد بني فلان سيد البشر ، سيد ولد آدم ، سيد الشهداء ، وما أشبه ذلك ، وعلى هذا فيجوز أن يقال سيد ، وسيد بني فلان ونحوه ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلاً لذلك أما إذا لم يكن أهلاً لذلك كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً ، فلا يقال له ذلك حتى لو فُرض أنه أعلى مرتبة أو جاهاً

وقد جاء في الحديث : (لا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ)[1] ، والحاصل أن تمام التوحيد يكون بالقيام بشروطه ، وأركانه ، ومكملاته ، ومحققاته ، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهراً وباطناً قولاً وفعلاً وإردةً واعتقاداً.

(١) أبو داود (٤٩٦٩) وصححه الإمام الألباني - رحمه الله - في صحيح سنن أبي داود (٤١٦٣) .

[٦٦] بَـــابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر]

ختم المصنف – رحمه الله تعالى – كتابه بهذه الترجمة ، وأراد بذلك تلخيص هذا الكتاب القيم فبعد ما ذكر التوحيد وفضل التوحيد وخطر الشرك والتحذير منه ومن أنواعه وما ينافي التوحيد أو ينافي كماله ذكر هذا الباب لأن الذي وقع في الشرك وأنواعه وما ينافي التوحيد أو ينافي كماله ما قدر الله – عزَّ وجلَّ – حق قدره ، وأن كثيراً من العباد ما قدروه حق قدره، وما عظموه حق تعظيمه ، وإلا فلو أن العباد عظموه وخضعوا له وذلوا له حقاً لما وقعوا في شيء من الشرك به – سبحانه – وأن الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر وشرك الألفاظ وقوادح التوحيد ونواقضه كل ذلك أعظم أسبابه هو عدم تعظيم الله – عزَّ وجلَّ – ، لأجل هذه العلة ختم المؤلف كتابه التوحيد بهذا الباب وهذا يدل على دقة فهمه – رحمه الله – .

قال المفسرون – رحمهم الله – في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، وما عظموه حق عظمته ، ولا وصفوه حق

صفته، فمن هذه صفة ذاته وأفعاله يمتنع أن يكون له شبيه ، أو شريك ، أو ضد ، أو ند ، إذ هو يتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، فكما أنه الخالق وحده فهو المعبود وحده ، وأراد المصنف – رحمه الله – بهذه الترجمة بيان أن عبادة غير الله شرك تنافي توحيده وتعظيمه والإيمان به ، فالمشركون ما عظموا الله حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وكفروا نعمه فلو أنهم قدروا الله حق قدره ما عبدوا غيره ولا كذبوا أخباره ولا كذبوا بصفاته وأفعاله فمن آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله – في القول السديد شرح كتاب التوحيد ، ختم المصنف – رحمه الله تعالى – كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه، لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، والمحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه وسر الإخلاص. فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، إنه جواد كريم[1].

(1) القول السديد للعلامة ابن سعدي – رحمه الله – (ص ١٩٦ – ١٩٧).

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله –

أن العابد مُعظِّمٌ لمعبوده ، مُتألِّهٌ له ، خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع له والذل، وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذي جُعِلَ شريكه في حقه هو عبده ومملوكه !

كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم :٢٨] .

أي : إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به ، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي ؟

فمن زعم ذلك ، فما قدرني حق قدري ، ولا عظمني حق تعظيمي ، ولا أفردني بما أنا منفردٌ به وحدي دون خلقي ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره .

كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ – ٧٤].

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلب الذباب شيئاً مما عليه، لم يقدر على استنقاذه منه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء، وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً، ولا أنزل كتاباً، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه، من إهمال خلقه، وتضييعهم، وتركهم سدى، وخلقهم باطلاً وعبثاً.

ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنفى سمعه، وبصره، وإرادته، واختياره، وعلوَّه فوق خلقه، وكلامه، وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، أو نفى عموم قدرته، وتعلُّقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه، وجعلهم يخلُقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه

ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون !! تعالى الله عن قول أشباه المجوس علوّاً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد، ولا له عليه قدرة، ولا تأثير له فيه ألبتة، بل هو نفس فعل الرب - جلَّ جلاله -، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه، الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق !

وإذا كان من المستقرِّ في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعلٍ، أو ألجأه إليه، ثم عاقبه عليه ؛ لكان قبيحاً، فأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعلٍ لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله ألبتة، ثم يعاقب عليه عقوبة الأبد ؟! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

وقول هؤلاء شرٌّ من أقوال المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدر الله حق قدره من لم يصنه عن نتنٍ ولا حُشٍّ ولا مكان يُرغبُ عن ذكره، بل جعله في كلِّ مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : ١٠]، و ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤]، وتنزل

من عنده، ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾[السجدة : ٥]، فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان – بل غيره من الحيوان – أن يكون فيه!

وما قدره حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته.

ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله.

ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه... إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حقَّ قدره!

وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من جعل له صاحبةً وولداً، أو جعله سبحانه يَحِلُّ في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود!

وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل فيهم الملك والخلافة والعزَّ، ووضع

أولياء رسوله وأهل بيته وأهانهم وأذلَّهم وضرب عليهم الذِّلَّة أينما ثُقِفوا!

وهذا يتضمَّن غاية القدح في جناب الربِّ تعالى عن قول الرافضة علوّاً كبيراً.

وهذا القول مشتقٌّ من قول اليهود والنصارى في ربِّ العالمين: إنه أرسل مَلِكاً ظالماً، فادَّعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمناً طويلاً يكذب عليه كلَّ وقت ويقول: قال الله كذا! وأمر بكذا! ونهى عن كذا! وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك! والربُّ تبارك وتعالى يؤيِّدُه، ويظهره، ويعليه، ويُعِزُّه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن خالفه، ويقيم الأدلة على صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويُحدِثُ أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء!

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين علوّاً كبيراً.

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة؛ تجد القولين كما قال الشاعر:

رَضِيْعَيْ لِبانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَحالَفا ... بِأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتفَرَّقُ

وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من قال: إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم، وينعِّم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواءٌ، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمنعناهُ للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله!

وقد أنكر سبحانه على من جوَّز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧–٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١–٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥–٣٦].

وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن بإحسانه والمسيء

بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقَّه من ظالمه ، ويكرم المحتمِّلين للمشاقِّ في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبيِّنُ لخلقه الذي يختلفون فيه ، ويُعْلِمُ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدره حقَّ قدره من هان عليه أمرُه فعصاه ، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه ، وذِكْرُهُ فأهمله وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعته ، فلله الفضلة في قلبه وعمله ، وسواه المقدَّم في ذلك ، لأنه المهمُّ عنده ، يستخفُّ بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ، ويُعظِّمُ نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحيي من الناس ولا يستحيي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه ، وإن عامل الله ، عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يحبُّه من البشر ، قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد فرَّغ له قلبه وجوارحه ، وقدَّمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام في حقِّ ربِّه – إن ساعده القدر – ، قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يوجه به مخلوق لمثله !

فهل قدر الله حقَّ قدره من هذا وصفه ؟!

وهل قدره حقَّ قدره من شارك بينه وبين عدوِّه في محض حقِّه من الإجلال والتعظيم والذُّلِّ والخضوع والخوف والرجاء ؟!

فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً في ذلك ، لكان ذلك جراءةً ، وتوثُّباً على محض حقِّه ، واستهانةً به ، وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلُحُ إلا له سبحانه ؛ فكيف وإنما شَرَكَ بينه وبين أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوُّه على الحقيقة ؟!

فإنه ما عبد من عبد من دون الله إلا الشيطان ؛ كما قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ – ٦١] .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم ؛ وقعت عبادتُهم في نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنُّون أنهم يعبدون الملائكة .

كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ – ٤١] ، فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ، ويوهِمُهُ أنَّه ملك .

وكذلك عُبَّاد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب ، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج !

ولهذا إذا طلعت الشمس، قارنها الشيطان، فيسجد لها الكافر، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمَّه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم، لا عبد الله ورسوله.

فنزل هذا كلُّه على قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان، إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله، الذي هو غاية رضى الشيطان.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ ﴾، أي: من إغوائهم وإضلالهم، ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السرِّ الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب،

وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرَّد النهي عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إلهٍ غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله .

وكيف يُظَنُّ بالمنفرد بالربوبيَّة والإلهيَّة والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به ؟! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[1] .

هذا ما تيسر ذكره ، أسأل الله أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم ، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين والمؤمنات إنك سميع الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والله تعالى أعلم .

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتب
الفقير إلى عفو ربه القدير
إبراهيم بن فرح محمد خيري
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الرياض
يوم الجمعة ١٩/ ٥/ ١٤٤٠هـ

---

(1) الجواب الكافي للإمام ابن القيم –رحمه الله – (ص ٣٣٥-٣٤٣) .

المحتويات

من إصداراتنا

شَرْحُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الحُسْنَى
سُؤَالٌ وَجَوَاب

إتحاف الْبَرِيَّة
شرح الأربعين القرآنية

كَشْفُ الشُّبُهَاتِ
(٦٠) سؤالاً وجواباً

الْقَوَاعِدُ الأَرْبَع
في سؤالٍ وجوابٍ

مَسَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ

في سؤالٍ وجوابٍ

أركان الإيمان

في سؤالٍ وجوابٍ

الأصول الثلاثة وأدلتها

٩٠ سؤالاً وجواباً

للأطفال